

الأستاذ الدكتور
حلمى محمد القاعود

فى رياض النبوة
قصة و حديث

(الجزء الثالث)

دار العلم و الإيمان للنشر و التوزيع

٢٤٢
ج.١ القاعد ، حلمي .

في رياض النبوة قصة وحديث ج ٣ / علي أحمد الخطيب . - ط١ . - سوق :
الظم والإيمان للنشر والتوزيع ، ٢٠١١ .
١٦٠ ص ، ١٧ ، ٥ × ٢٤ ، ٥ سم .
تكمك : 3-314-308-977-978
١. المسيرة ١ - لتطوان .

رقم الإيداع : ١٠٨٩٨ .

الناشر : دار الظم والإيمان للنشر والتوزيع

سوق - شارع الشركات - ميدان المحطة

هاتف : ٠٠٢٠٤٧٢٥٥٠٣٤١ - فاكس : ٠٠٢٠٤٧٢٥٦٠٢٨١ .

E-mail: elelm_aleman@yahoo.com

elelm_aleman@hotmail.com

حقوق الطبع والتوزيع محفوظة

تحذير:

يحظر النشر أو النسخ أو التصوير أو الاقتباس بأي شكل

من الأشكال إلا بإذن وموافقة خطية من الناشر

2015

الطمع فى رحمة الله - ١

عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله -
صلى الله عليه وسلم :

إن أدنى أهل الجنة منزلاً رجل صرف الله وجهه عن النار قبل الجنة ، ومثلاً له
شجرة ذات ظل ، فقال :

أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة ، فأكون فى ظلها ، فقال الله : هل عسيت أن
تسالنى غيره ؟

قال : لا وعزتك ، فقدمه الله إليها ، ومثلاً له شجرة ذات ظل وثمر .

فقال : أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة فأكون فى ظلها ، وأكل من ثمرها .

فقال الله : هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسالنى غيره؟

فيقول : لا وعزتك . فقدمه الله إليها ، فيمثل الله شجرة أخرى ذات ظل وثمر

وماء ، فيقول : أى رب قدمنى إلى هذه الشجرة فأكون فى ظلها ، وأكل من ثمرها .
وأشرب من مائها".

حديث صحيح أخرجه مسلم وأحمد والترمذى وغيرهم .

هذا جزء أول من حديث أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - رواه عن الرسول
صلى الله عليه وسلم . عن أدنى أو أقل أهل الجنة منزلاً أو درجة يوم القيامة . ونحن نعلم
أن الناس يوم الحساب ثلاثة أنواع :

الأول: يدخل الجنة برأى ربه ثواباً على إيمانه وطاعته والتزامه .

و الثانى : يدخل النار جزاءً وفاقاً لكفره وظلمه وبغيه .

و الثالث : يلقى على الأعراف ، أى بين الجنة والنار لتقصير هنا أو هناك ..

وهذا النوع الثالث أقرب إلى الجنة لأن الله - جل وعلا - صرف وجهه عن النار

وكفاه شرها وعذابها .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الأنواع الثلاثة في آيات مستفيضة ، نكتفى منها بالإشارة إلى موقف النوع الثالث .

يقول تعالى : **«وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسَمْتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (الأعراف : ٤٤-٤٧)»**

يقول المفسرون : إن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيناتهم فليسوا من أهل الجنة ولا أهل النار .

وفي الآيات التي قرأناها قبل قليل نجد إشارة إلى الحجاب الذي يفصل بين الجنة والنار ، ويقف عليه أهل الأعراف ، وهو سور ذكر في آية أخرى .

حيث يقول الله تعالى :

«.....فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُدًى بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (الحديد : ١٣)»

هذا السور يمنع وصول أهل النار للجنة ، وعلى هذا السور رجال الأعراف يعرفون كلاً من أهل النار وأهل الجنة بسيماهم أى بعلامتهم التى ميّزهم الله بها ، فأهل النار يُعرفون بسواد وجوههم ، وأهل الجنة يُعرفون ببياض وجوههم .

ورجال الأعراف يحبسون على السور حتى يقضى الله فيهم ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة سلّموا عليهم ، وإذا نظروا إلى أهل النار ، قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين .

رجال الأعراف ، ينظرون دائماً أو معظم الوقت إلى أهل الجنة ، ويرجون ربهم أن يقربهم منها ، وهم بهتة الوضع أو فى أهل الجنة منزلاً ، بحكم أن الله صرف وجوههم عن النار ، والصرف عن النار يعد رحمة من رحمات الله .

"مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ" وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (الأَنْعَامُ ١٦)
 فأهل النار يمتثلون صورةً يهرب منها الناس جميعاً ، ويسعون إلى الإبتعاد عنها
 وتضم رؤساء الكفرة و أتباعهم ، الذين ظنوا أن جمعهم للمال واستكبارهم عن الإيمان
 سيحميهم من العذاب يوم القيامة . ولكن هيهات ! فرجال الأعراف يسألونهم في توبيخ و
 تفریح ونهكم مشيرين إلى أهل الجنة .

"أَهْتَوْا لَا الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ....." (الأعراف ٤٩)
 ويرزقون ذلك بمخاطبة أهل الجنة : "...أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا
 أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ" (الأعراف ٤٩)

وفي قصصنا التي يقدمها لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نجد تعبيراً
 عملياً أو تطبيقياً واقعياً لأشواق أهل الأعراف أو أدنى الناس منزلاً من الجنة، لدخول
 الجنة والاستمتاع بها ، انطلاقاً من طمعهم في رحمة الله سبحانه التي وسعت كل شيء .
 فتتمثل للواحد منهم شجرة ذات ظل . مجرد شجرة تظهر أمامه ، فيدعوره
 ويطلب منه أن يقترب منها ليكون في ظلها ، فيستجيب له الرحمن الرحيم

و يسأله : هل عسيت أن تسألني غيره ؟

أى هل ستطلب منى بعد ذلك طلباً آخر .

فيقول له : لا وعزتك .

ثم يمثل له شجرة ذات ظل ، وفيها ثمر .. أى شجرة أفضل من الشجرة السابقة .
 لأن بها شاراً إلى جانب الظل ، وهنا تتحرك غريزة الطلب والرغبة في الزيادة ، فيطلب
 صاحبنا من ربه أن يقره منها ، ويستجيب له ، سائلاً إياه : هل عسيت إن أعطيتك ذلك
 أن تسألني غيره ؟

فيقول : لا وعزتك . فيمثل له شجرة أخرى ذات ظل و ثمر و ماء . ولا يتردد

صاحبنا في الطلب من ربه أن يقدمه إليها .. وحين يحقق طلبه ، يقول له : هل عسيت إن

فعلت أن تسألني غيره ؟

الطمع في رحمة الله - ٢

عرفنا في الحلقة السابقة من حديث أبي سعيد الخدري - رضى الله عنه كيف صور الرسول - صلى الله عليه وسلم - طمع أدنى أهل الجنة منزلاً ممن صرف الله وجهه عن النار ، في رحمة الله ، حيث يطمع في شجرة ذات ظل ، ثم شجرة ذات ظلٍ وثمر ثم شجرة ذات ظلٍ وتمرٍ وما .

وهنا يسأله رب العزة :

" هل عسيت إن فعلتُ أن تسألني غيره؟

فيقول : لا وعزتك لا أسألك غيره ، فيقدمه الله إليها . فيبرز له باب الجنة .

فيقول : أى رب ، قدمنى إلى باب الجنة ، فأكون تحت سجاج الجنة

فأرى أهلها ، فيقدمه الله إليها فيرى الجنة وما فيها .

فيقول : أى رب ! أدخلنى الجنة ، فيدخل الجنة . فإذا دخل الجنة قال :

- هذا لى ؟

فيقول الله له : تمن ، فيتمنى ، ويذكره الله عزوجل سل من كذا وكذا ،

حتى إذا انقطعت به الأمانى .

قال الله : هولك وعشرة أمثاله ، ثم يدخله الله الجنة ، فيدخل عليه

زوجاته من الحور العين : فيقولان : الحمد لله الذى أحياك لنا ، وأحيانا لك .

فيقول : ما أعطى أحدٌ مثل ما أعطيت "

صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

نرى في الجزء الثانى من حديث أبى سعيد الخدري - رضى الله عنه -

تكملة لموقف أدنى أهل الجنة منزلة ، أو أهل الأعراف الذين صرف الله وجوههم عن

النار فاستشرفت أبصارهم وقلوبهم الجنة وأهلها ، وتمنوا أن يكونوا من أهلها ،
ويبتعدوا عن أهل النار وما معهم التي تذكر بالسيئات والآثام .

لو أن أهل الأعراف تفوقوا في حسناتهم ، لدخلوا الجنة بفضل الله ،
وصاروا بمنأى عن هذا الوضع المقلق الذي يجعلهم يرون الجنة ولا يستطيعون
الدخول إليها ، ويشاهدون النار وما يجري فيها من عذاب ؛ وهو ما يثير فيهم الندم
والحسرة بسبب تقصيرهم .

وقد رأينا من تقع مكانته في أدنى الجنة ، أي قريبا منها ، كيف يطمع في
رحمة الله ، ويطلب المزيد . وكما حقق له الخالق جل وعلا رغبة تتصوّر له ،
تمثلت له رغبات أخرى يطلب تحقيقها ، مع أنه في كل مرة تتحقق فيها رغبة
يقول لربه " لا وعزتك لا أسألك غيره" .

لقد حقق له أولا رغبته في الجلوس تحت شجرة ذات ظل ، وكان قد قرر ألا
يسأل ربه شيئا آخر بعد تحقيق هذه الرغبة و يتكرر الأمر حين يرغب في شجرة
ذات ظل و ماء وشجرة ذات ظل و ثمر و ماء .

ويقول له ربه : هل عسيت إن فعلتُ أن تسألني غيره ؟

فيقول : لا وعزتك ، لا أسألك غيره . وبعد أن ينال المراد ، يُفترض أن يكف
عن الطلب . ولكنه لا يكف ويطلب ما هو أكبر من الشجرة والظل والثمر والماء .
إنه يطلب الجنة نفسها : أي رب قدمنى إلى باب الجنة ، فأكون تحت
سجاف الجنة فأرى أهلها " .

إنه يتمنى أن يقترب من الباب ، ليكون تحت حافة الجنة أو السجاف
وهو الإطار أو الشريط الخارجى الذى يظلل الباب .. ولكن الرحمن الرحيم يفاجئته
بتحقيق ما هو أكبر من طلبه : يقدمه إلى الجنة ليرى أهلها وما فيها .
ولكن هل تتوقف المطالب من أدنى أهل الجنة منزلة ؟

إنها لا تتوقف ، فالطمع فى رحمة الله لا حد له ، ورحمة الله قريب من
المحسنين ورحمته وسعت كل شىء ، و نجد طلباً أكبر من كل ما سبق ، حيث
يطلب أدنى أهل الجنة منزلةً دخول الجنة ومشاركة أهلها : رب أدخلنى الجنة ،
فيدخل الجنة . وتدهشه المفاجأة فإذا به يسأل : هذا لى ؟

و تكون الإجابة تعبيراً عن سعة الرحمة و امتدادها : تمن .

أى إن الحق سبحانه يطلب منه هذه المرة أن يطلب المزيد ، ويتمنى ما
يريد حتى تنقطع به الأمنى ، أى لا يجد أمنية فى ذهنه أو داخلها نفسه يريد
تحقيقها . فقد تحققت جميعاً بفضل الخالق الأعظم و صاحب الكون وما فيه جل
شأنه و عظم جاهه .

إنه يحقق له ما يريد وعشرة أمثاله و يدخل الجنة برحمة الله .

ثم تدخل عليه زوجته من الحور العين - فى مفاجأة لا يتوقعها ولا
ينتظرها.. وليست المفاجأة فى دخولهما فحسب ، ولكن فيما يقولانه حمداً لله
و شكراً على نعمائه حيث تقولان : الحمد لله الذى أحياك لنا ، وأحيانا لك ..
أى خلقك لنا وخلقنا لك ، و ضمنا فى دار النعيم الدائم الخالد إلى ما شاء الله .

إن هذه القصة الشائعة حثنا على الأمل فى رحمة الله ، وعدم
الياس من رحمته . وندفعنا دفعاً إلى معالجة تقصيرنا وقصورنا بكل ما نستطيع .
فكلما أكثرنا من الحسنات ازداد أملنا فى المولى سبحانه و دخول جنته والبعد عن
النار والتحرر من حبس الأعراف ووضع القلب ..

ولا شك أن زراعة الخير فى الدنيا سيكون حصادها الجنة فى الآخرة
بإذنه تعالى : "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ
وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
الْمُحْسِنِينَ" (آل عمران . ١٢٢-١٢٤)

القول و الفعل

عن أسامة بن زيد - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول :
" يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار ، فتذلق أفتابُ بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى .

فيجتمع إليه أهل النار . فيقولون :
يا فلان ، مالك ، ألم تكن تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ؟
فيقول ، بلى ، كنت أمر بالمعروف ، ولا آتية ، وأنهى عن المنكر وآتية "
حديث صحيح ، أخرجه البخارى ومسلم .

.....
.....
.....
هذه قصة قصيرة جداً ، ولكنها طويلة الدلالة ممتدة المعنى فى كل زمان ومكان إذ إنها تعبر عن آفة شائعة بين الناس ، وهى عدم تطابق القول مع الفعل أو الانفصام بين القول والفعل .

و هذه الآفة مرفوضة فى الإسلام ، ويحذر منها القرآن الكريم فى أكثر من مناسبة ، فيقول الحق سبحانه :
"يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٠﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ" (الصف ٢٠-٢١)
ثم إنها تحول إلى سلوك مذموم يودى بصاحبه إلى الدرك الأسفل من النار ، لأن صاحبه تحول إلى " منافق " ، يقول فى العن غير ما يخفى فى الباطن .

"وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا حَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا حَنُّ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٦﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اسْتَرَوْا الضَّلِيلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ" (البقرة ١٦-١٧)

و تصل هذه الآفة إلى درجة الخطورة حين يأمر المصاب بها الناس
بالمعروف ولا يفعله ، وينهاهم عن المنكر ويمارسه ، ولذا يصوره الرسول - صلى الله
عليه وسلم فى القصة التى يتضمنها الحديث الشريف تصويراً حياً مؤثراً ، يمثل عبرة
لمن يعتبر ، حيث يؤتى به يوم القيامة ، ويلقى فى النار ، أى إنه من أهل النار .

وحين يدخلها تخرج أمعاؤه من بطنه ، وتمتد أمامه ، وهو يدور وهى متصلة
به فكأنه الحمار المربوط بحبل طويل إلى الرحى يلف حولها ليحركها وهى ثابتة فى
مكانها أو كما قال الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - تندلق أقتاب بطنه -
أى تخرج الأمعاء من بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى .

والرحى من الأدوات التى كان يستخدمها الفلاحون منذ القدم حتى وقت
قريب ولعلها مازالت موجودة فى بعض القرى وتتكون من حجرين مدورين ،
يوضع أحدهما فوق الآخر الذى له قائم أو عمود فى مركزه يجعله يدور حوله ،
ويوضع بينهما الحب الذى يراد طحنه .

و التشبيه بالرحى يأتى لقربه من الناس آنئذ ، فالذى خرجت بطنه
وامتدت ويدور بها فى النار ، يشبه دوران الحمار فى الرحى ، حيث يحركها لتؤدى
وظائفها فى طحن الحبوب من قمح وشعير وغيرهما .

إن هذا المنظر الذى يكون عليه الأمر بالمعروف ولا يأتية ، والناهى عن
المنكر ويفعله ، يشد أهل النار ، ويجعلهم يتساءلون :

يا فلان . مالك . ألم تكن تأمر بالمعروف و تنهى عن المنكر؟

إنهم يستغربون ، أو يندهشون لوجود بينهم ، فمن المفترض أن مثله لا
يدخل النار وقد استجاب لمنهج الإسلام فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ،

كما يقول تعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ"....." (آل عمران : ١١٠)

وكما يقول أيضا: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (آل عمران : ١٠٤)

ولكن صاحبنا ، كان يقول غير ما يفعل ، و يطبق عكس ما ينادى به ، فكان مثله مثل بنى إسرائيل الذين أمروا الناس بالبر ، ونسوا أنفسهم ، وأشار إليهم الحق سبحانه بقوله : "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" (القرة : ٤٤)

و صاحبنا هو الذى يعنيه الشاعر بقوله :

لا تنه عن خلق و تأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

إن منهج الإسلام يقوم على المطابقة بين القول والفعل ، بين الاعتقاد والسلوك والذين يظنون أن الشكل يكفى عن الجوهر واهمون ، ولعل الحكمة الشعبية عبّرت عن ذلك منذ زمن بعيد حين قال البسطاء : " ربنا رب قلوب .. " أى إن السلوك لا يعبر بالضرورة عما فى القلب بالضرورة .

إن من يأمر بالمعروف ولا يفعله ، مقصر فى حق نفسه وحق الإسلام و المسلمين ومن ينهى عن المنكر ويفعله ظالم لنفسه وللإسلام و المسلمين ، ولذا كانت عقوبته شديدة يوم القيامة ، لدرجة أن تخرج أمعاؤه من بطنه ، و يدور بها كما يدور الحمار فى الرحى .

إن خيرية الأمة الإسلامية تقوم على الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذه الخيرية تتحقق بالتنفيذ الصادق المخلص ، أما التناقض أو الفصام بين القول والفعل فليس من الإسلام فى شىء .

دعاء السفر عند الحج

قال ابن جُريح : أخبرني أبو الزبير : أن علياً الأزدى أخبره أن ابن عمر علمهم : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر . كبر ثلاثاً . ثم قال : "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ" (الزخرف : ١٣-١٤) اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والنقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطوِّعنا بعده . اللهم ، أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل .

اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر ، وكآبة المنظر وسوء المنقلب ، في المال والأهل .*

و إذا رجع قالهن . وزاد فيهن : " آيبون . تائبون . عابدون . لربنا حامدون " أخرجه مسلم .

.....
 يمثل السفر بصفة عامة مشقة للناس ، وخاصة المرضى وكبار السن وأصحاب الضرورات ، والرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - يعلمنا من خلال ما رواه ابن عمر - رضى الله عنهما ، كيف نبدأ السفر بالدعاء ...
 و الدعاء كما نرى في العبارة هو الطريق لرضا الله . و إذا رضى الله عن عبد يسر له أمره ، وسهل له الصعب ، و حقق له ما يتمناه :

"وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ " (غافر : ٦٠)
 "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (البقرة : ١٨٦)

و يبدأ الرسول - صلى الله عليه وسلم - دعاءه ، مند أن يرتقى راحلته أو ناقته التى يستوى فوقها إيداناً بالشروع فى السفر إلى الحج ، فإذا استوى على بعيره قرأ الآيتين الكریميتين من سورة الزخرف "سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣٠﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ" ، وفيهما تنزيه لله و تسبيح له ، فهو الذى سخر لنا الركائب التى نركبها سواء كانت حيواناً - كما كانت فى الزمن الماضى ولم تنزل فى الزمن الحاضر ، أو اختراعاً اخترعه الإنسان قديماً وحديثاً مثل السفن أو البواخر والطائرات والأقمار الصناعية ، فضلاً عن القطارات وأشبابها والسيارات المتنوعة ؛ فلولا التسخير الإلهى لهذه الوسائل الحية أو الآلية لما استطاع الإنسان أن ينتقل بسهولة ويسر وسرعة إلى الأماكن البعيدة . ولذا كان على المسلم أن يتذكر تلك النعمة العظيمة التى أنعم الله بها عليه ، ونُذِّل له هذه الركائب ليصل إلى أماكن الحج أو غيرها . ويجب أن يكون هذا التذكر قائماً على تسبيح الله وحمده وتنزيهه ، والإيمان بالعودة إليه أو الانقلاب إليه بعد انتهاء الحياة الدنيا .

و يعلمنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - كيف ندعوبعد أن نقرأ للمدعو بالعبودية والتنزيه والقدرة المهيمنة على الكون ..وهو دعاء يتفق مع طبيعة المسلم فى حركته وسكونه ، وعلنه وسره ، فيقول : " اللهم ، إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى " والبر اسم جامع لكل أنواع الخير والمعروف ، والتقوى هى الخوف من الله فى السر والعلن أو هى كما عرفها الإمام على - رضى الله عنه - الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والرضا بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل " .

فالحاج أو المسافر يطلب من ربه أن يمنحه الخير ، ويوفقه إلى التقوى وهو سائر فى طريقه إلى الحج حيث يؤدى الفريضة أو هو مسافر إلى مكان ما ليؤدى عملاً أو يزور أهلاً أو قوماً ، ويعطف على ذلك الطلب الرجاء فى عمل ما

يرضى الله...وتلك آية المسلم الذي يتحرك بالخير والمعروف ويعيش من أجلهما طمعا في عفو الله ورضاه .

و لأن السفر ، حتى لو كان بأسهل الوسائل والطرق ، فيه مشقة وعناء وجهد كبير ، فإن المسافر المسلم ، يطلب من ربه سبحانه الذي سخر له الوسيلة ، أن يهون عليه السفر وما فيه من مشقات ومعاناة ومتاعب " اللهم هون علينا سفرنا هذا ، واطو عنا بعده " فتهوين السفر جعله سهلا وميسرا ، واطو عنا بعده ، أى اجعله قريبا ، ولا تجعله بعيدا فكلما بعدت المسافة ازدادت الشقة وتضاعفت المتاعب ، ومن يسر الله سفره يقرب إليه المسافة البعيدة ، فلا يستشعر ثقلها وصعوبتها .. ونحن نعلم أن المشرع الإسلامى أجاز للمسلم المسافر سفرا بعيدا أن يقصر الصلاة ويجمعها ، ويفطر رمضان وفقا لضوابط يعلمها الفقهاء والمتخصصون .

وكما يعترف الحاج أو المسافر فى بداية دعائه بهيمنة الخالق وقدرته على كل شئ ، فهو يدعوه ليكون صاحباً فى السفر يرعى المسافر ، وأن يخلفه فى اهله وأسرتهم ليرعاهم ويتولى أمرهم .. فمن غيره يكون نعم صاحب ، ونعم الخليفة ؟ لا احد .

ثم يدعو الحاج أو المسافر كما دعا الرسول – صلى الله عليه وسلم – اللهم إنى أعوذ بك من وعناء السفر – أى شدته ومشقته ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب فى المال والأهل ."

و الكآبة و السوء من الأمور التى تزعج الإنسان عموماً ، فكيف بالمسافر الذى يتمنى رؤية ما يبهج ، ويعود فيجد ما يسره فى ماله وأهله ؟ إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يعلمنا أن نردد هذا الدعاء ونحن نبتدى السفر ، ونقوله ونحن نعود منه ؛ مع زيادة قوله : آيبون أى عائدون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون " ؛ مما يعنى أن المسلم يرتبط بربه دائما فى البدء والمنتهى .

الحج المبرور

عن أبي هريرة رضى الله عنه . قال : سئل النبي - صلى الله عليه وسلم - أى العمل أفضل ؟

قال : "إيمان بالله ورسوله" . قيل : ثم ماذا ؟ قال : "الجهاد فى سبيل الله" .
قيل : ثم ماذا ؟
قال : " حج مبرور" .
متفق عليه .

يقدم لنا هذا الحديث الشريف قصة قصيرة حوارية بين سائل ومسئول . السائل مجهول ، ويأتى الكلام عنه بصيغة المبنى للمجهول - أما المسئول فهو النبي - صلى الله عليه وسلم .

و يبدأ السؤال الأساسى الذى يتفرع عنه سؤال من جنسه : أى العمل أفضل ؟ .

والسؤال كما نرى اجتهاد من المسلم السائل ، عن أفضل الأعمال التى يمارسها أو يطبقها فى حياته الواقعية أو اليومية .

وتبدأ إجابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالحديث عن الجهاد فى سبيل الله بوصفه أفضل الأعمال التى تقرب إلى الله .

والجهاد هو عماد الحياة الإسلامية الطاهرة ، سواء كان الجهاد الأصغر وهو القتال ضد الأعداء ، أو الجهاد الأكبر وهو القتال ضد التخلف والفساد والظلم والكسل والجهل والمرض والبؤس والشقاء والتشرذم... وغير ذلك من مظاهر لا تصنع مجتمعا قوياً ولا حضارة فعالة ..

الجهاد الأصغر وسبلته السلاح والتدريب والخبرة والخطط العسكرية...

أما الجهاد الأكبر ، فوسيلته أو وسائله مختلفة ، فهي تعتمد على العقل والفكر والعلم والثقافة والإبداع والعمل الدائب المنظم المستمر المتقن القائم على التعاون والتناصح والتفاعل الحي مع الغير..

هذا هو أفضل الأعمال التي أجاب عنها الرسول - صلى الله عليه وسلم - سائله عن أى الأعمال أفضل ؟

أما السؤال الثانى ، فكانت إجابته من الرسول - صلى الله عليه وسلم -
" حج مبرور "

والحج المبرور هو الذى لا يرتكب فيه صاحبه معصية أو ذنباً .

إنذاً الحج المبرور من أفضل الأعمال التى يجب أن يسعى إليها المسلم ليرضى ربه وهناك وجه شبه بين الجهاد والحج ، فكلاهما يقتضى جهداً وعتاءً ، وكلاهما فيه مشقة وعناء وحرمان .. والذى يصير على الحج ومصاعبه ، مثل المجاهد الذى يصبر على متاعب الحرب وقسوتها ..

بيد أن " الحج المبرور " الذى تحدث عنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الحج الخالص لوجه الله ، حيث ينصرف المسلم بكليته إلى مولاه لا يشغله شىء عن جلال الموقف العظيم الذى يقفه وسط الحشود الهادرة والزحام الصعب متجرداً من المحيط والمخيطة ، ممنوعاً من التعطر والتأنق ، متفرغاً للصلاة والعبادة ، وقد يعمل بالتجارة ابتغاء من فضل الله ، ولكنه فى كل الأحوال ، لا يستطيع أن يقرب امرأته أو يقص شعره أو أظفاره .. فهو إنذاً كأنه يجاهد أو فى مرتبة الجهاد .

ووصف الحج بالمبرور ، ليخرج منه الحج الآلى أو الشكلى الذى يؤديه صاحبه دون أن يتأثر بمناسك الحج قلبياً ووجدانياً وشعورياً ، فلا يكون متصلاً بحبل الله ولا مرتبطاً بذكر الله .. هذا الحج الآلى يشبه ذلك الحج الذى يسعى

صاحبه إلى مراعاة الناس ، أو الحرص على شراء لقب يناديه الناس به فى بعض البلاد ، ويحق له الجاه والسلطان على أمثاله من عشيرته وقومه .

و الأهم من ذلك كله أن الحج المبرور هو الذى لا يرتكب صاحبه معصية أو ذنباً ، وكيف نتصور مسلماً ذهب إلى الحج يعبد الله و يتطهر من الذنوب ، فيرتكب ذنباً جديدة أو معاصى أخرى تضاف إلى سجله الملىء بالذنوب والخطايا ؟

إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول فى حديث متفق عليه .

" من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه "

و الرفث و الفسوق من الأمور المنهى عنها لأنها تخالف الإسلام ، و تدخل تحت دائرة المعاصى التى تفسد الحج وتجعله غير مبرور .. ولذا فإن الحج المبرور هو الذى يعيد صاحبه إلى الطهارة و النقاء و الصفاء مثل الطفل الوليد الذى لم يرتكب إثماً ولا جريمة .. وايضاً فإن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة كما يقول حديث نبوى آخر متفق عليه .

لا شك أن الحج ليس مجرد مناسك يؤديها المسلم لتسقط عنه فريضة تعد الركن الخامس من أركان الإسلام ، ولكنه إخبارات و خوف من الله و صبر على البلاء و إقامة الصلاة و إنفاق فى سبيل الله .

و صدق الله إذ يقول :

"وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةٍ ۗ الْأَنْعَامِ ۚ فَالْهَكْمُ إِلَهُهُ وَاحِدٌ ۗ فَلهٗ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ۗ وَالصَّيْرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ۗ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقَهُمْ يَنْفِقُونَ " (الحج : ٢٤-٢٥)

الحج مرة واحدة

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : خطبنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : "يا أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجّوا" فقال رجل : أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو قلت : نعم لوجّبتُ و لما استطعتم " ثم قال : " نرونى ما تركتكم ؛ فإنما أهلك من كان من كان قبلكم بكثرة سؤالهم و اختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم و إذا نهيتكم عن شيء فدعوه " رواه مسلم

يحكى أبو هريرة رضى الله عنه قصة فرض الحج على المسلمين مرة واحدة كما يفهم من سياق الحديث الشريف الذى جاء فى خطبة للرسول صلى الله عليه وسلم .

كما نتعرف من الحديث الشريف على ما ينبغى أن يكون بين السائل والمسئول فى مقام التشريع والتقنين حتى لا يكون هناك ما يزهق المسلم ويثقل على كاهله .

وفى الخطبة النبوية التى أشار إليها أبو هريرة رضى الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم - قال " يا أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا". وهذا النداء للمسلمين يؤكد ما ورد فى القرآن الكريم والحديث الشريف حول فرضية الحج بوصفه ركنا من أركان الإسلام الخمسة .

فقد قال الله تعالى :

".....وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ" (آل عمران: ٩٧)
وقال تعالى: "وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ....." (البقرة: ١٩٦)

و قال تعالى: "الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزُودُوا لِإِبْرَةِ خَيْرِ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ" (البقرة: ١٩٧)
و هناك الحديث الشريف المشهور: "بنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً."

و هذا يعنى أن الحج ركن من أركان الإسلام ، يؤديه كل قادر عليه ، بما تعنيه القدرة من مال وعافيه وأمن فى الذهاب والإياب ، ومن يتخلف عن أدائه وهو قادر عليه فقد باء بالخسران المدين .

و يكشف لنا الحديث الشريف عن لهفة المسلمين إلى التعرف على دينهم مما يدفع بعضهم إلى كثرة الإلحاح بالسؤال على النبي -- صلى الله عليه وسلم لمعرفة أصول دينهم وهو ما قد يوقعهم فى الخطأ ..

فعندما سمع الناس خطبة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قام رجل ليسأل : أكل عام يا رسول الله ؟

ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - سكت ، حتى كرر الرجل سؤاله ثلاث مرات ، فقال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - " لو قلت نعم لوجئت ولما

استطعتم ' أى إنه لو قال نعم فى كل عام ..لصارت واجبة على المسلمين كل عام . وهو ما يفوق طاقتهم وقدرتهم ولذا يعلم الرسول - صلى الله عليه وسلم - المسلمين درساً مهماً :

" ذرونى ما تركتكم " ، أى اتركونى دون سؤال ، طالما تركتكم دون إفاضة فى الكلام أو فى الحديث .. حتى لا تكونوا مثل أمم أخرى سبقتكم ، هلكوا بسبب أسئلتهم الكثيرة لأنبيائهم ورسولهم ، واختلافهم عليهم .. وقد كان بنو اسرائيل يكثر من الأسئلة لأنبيائهم و يختلفون عليهم ، وفى سورة البقرة نموذج للإلحاح بالأسئلة على سيدنا موسى عليه السلام فى أمر البقرة المشهور ، وما سبقها من مواقف وممارسات وأقوال ، انتهت بهم إلى قسوة القلب ، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة .

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ
قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقُّ
فِيخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ " (البقرة: ٧٤)

وهو ما يعنى أن تكليف المسلمين بالحج مرة واحدة ، هو رحمة بهم وتيسير عليهم ، خاصة وأن الحكمة الإلهية تسبق المفاهيم المحدودة للبشر فى كل زمان و مكان . فهذا الصحابي الذى كانت مكة بالنسبة له قريبة أو يمكن الوصول إليها كل عام ، لم يكن يدرى أن المسلمين سيتجاوزون المدينة وما حولها ، بل يتجاوزون الجزيرة العربية إلى آفاق الأرض شرقاً وغرباً ، وأن أداء الفريضة مرة واحدة فى العمر يصير حلم المسلم فى البلاد البعيدة والأطراف المترامية .

فى حجة الوداع

عن عائشة رضى الله عنها - قالت : خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عام حجة الوداع . فأهللنا بعمرة . ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :-

" من كان معه هدىً فليهلّ بالحج مع العمرة . ثم لا يجلّ حتى يجلّ منهما جميعاً " قالت: فقدمت مكة و أنا حائض ، لم أطفُ بالبيت ولا بين الصفا والمروة ، فشكوت ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم : فقال :-
" انقضى رأسك ، و امتشطى ، و أهلى بالحج ودعى العمرة . "

قالت: ففعلتُ . فلما قضينا الحج أرسلنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم مع عبد الرحمن بن أبى بكر إلى التنعيم ، فاعتمرتُ فقال : هذه مكان عُمرتك فطاف الذين أهلّوا بالعمرة بالبيت ، وبالصفا والمروة . ثم حلّوا ، ثم طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجّهم ؛ و أما الذين كانوا جمعوا الحج والعمرة ، فحلّوا طوافاً واحداً .
أخرجه البخارى و مسلم وغيرهما .

.....

تروى عائشة - رضى الله عنها - قصة حجة الوداع ، وما يتعلق بها فى هذا الحديث النبوى الشريف ، و تقدم لنا بعض الأحكام التى ترتبط بالحج والعمرة ، من حيث الأفراد أو القزان أو التمتع ، كما تطرح مسألة الظرف الطارىء الذى يعترى المرأة ، و يعرف بالدورة الشهرية أو الحيض ؛ وهى فى طريقها لأداء مناسك الحج أو العمرة أو فى أثنائهما . و أيضاً تشير القصة إلى ميقات الإحرام المكانى للعمرة بالنسبة لمن كان فى مكة و أراد العمرة .

و حجة الوداع هي الحجة التي قام بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته ولحاقه بالرفيق الأعلى ، وتحكى عائشة رضي الله عنها أنها خرجت مع الصحابة في رفقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -- فاهلّوا ، أى بدءوا أو استهلوا بأداء العمرة قبل أداء الحج . وهنا أرسى الرسول - صلى الله عليه وسلم - تشريعاً مهماً بالنسبة للذاهبين لأداء المناسك ، حيث إن من صحب معه هدى ، أى ذبيحة ، فله أن يقرن الحج بالعمرة و القران غير الإفراد .

فالإفراد هو أداء كل من الحج والعمرة على حدة ، دون ارتباط أحدهما بالآخر . أما القران فأداؤهما معاً بمناسك واحدة أو شعائر واحدة مقابل ذبح الهدى الذي يأخذه المقرن معه أو يشتريه في أثناء تأدية المناسك .

و يروى عن جابر بن عبد الله ؛ أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أحرم من ذى الحليفة إحراماً موقوفاً ، و خرج ينتظر القضاء ، فنزل الوحي وهو على الصفا فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من كان معه هدى أن يحج ، ومن ليس معه هدى أن يجعله عمرة .

وهناك روايات عديدة لهذه المسألة يدور حولها كلام كثير ، ليس هنا مجاله و يرجع بعض بالنسبة لعائشة رضي الله عنها أنها أهلت بالحج . و أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بين للناس . أن الجمع بين الحج والعمرة ممكن . بيد أن العلماء اختلفوا حول الأفضل بالنسبة للإفراد و القران و التمتع فقال المالكية ، إن الإفراد أفضل ، أما الحنفية فقد فضلوا القران . أما الشافعية وغيرهم فقد فضلوا التمتع ... وهو أداء العمرة ثم التحلل منها حتى قبيل الوقوف بعرفة ، فيبدأ الحاج أداء المناسك من جديد بعد الإحرام ، وفي القران و التمتع بم ، أى ذبح هدى في أيام النحر .

و تثير القصة موضوعاً حيويّاً يتعرض كثير من النساء في أثناء الحج وهو مجيء الدورة الشهرية أو ما يعرف في الفقه بالحيض .. وهذا الحادث يعفي

المرأة من الصلاة حتى تطهر بعد انقطاع الدم ، كما يعيها من أداء المناسك إلا بعد الطهارة ؛ وقد قالت عائشة أنها قدمت إلى مكة وهى حائض ، فلم تطف بالبيت ، ولم تسع بين الصفا والمروة ، وأن هذا الأمر كما نفهم من سياق الحديث قد ضايقها مما اضطرها إلى الشكوى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمرها بذلك بعد انقطاع الدم و التطهر والاعتسال ، فأمرها بنقض شعرها أى تخليله بأصابعها ، ثم تمشيطه ، ثم البدء فى مناسك الحج من طواف وسعى...ولما انتهت من فعل ذلك ، أرسلها مع شقيقها عبد الرحمن بن أبى بكر إلى التنعيم ، وفيه مسجد "السيدة عائشة" الآن ، ويحرم منه أهل مكة والمقيمون بها عند ما يبدؤون العمرة أو الحج .. فيصحبون ركعتى السنة ، ثم ينطلقون إلى الكعبة لأداء المناسك .

و تشير السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن التنعيم " هو مكان العمرة كما علمها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أما الذين نواوا العمرة وطافوا بالبيت وبالصفا والمروة ثم حلوا ، فقد طافوا طوافاً آخر بعد أن رجعوا من منى لحجهم .. وهؤلاء هم المتمتعون أو الذين أفردوا .. أما الذين قرنوا الحج بالعمرة ، فإنما طافوا طوافاً واحداً .

و يبقى أن هذه القصة وقد جاءت من خلال حجة الوداع ، التى اكتمل فيها الدين ".....الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا" ؛ (المائدة: ٣)

قد رسمت معالم الركن الخامس من أركان الإسلام ، وكيفية النية و أداء الحج والعمرة ، إفراداً أو قراناً أو تمتعاً .. ووضحت كيف تتصرف المرأة حين يأتيها العارض الشهري .. وكل ذلك فى إطار التيسير الإلهي على المسلمين .

التلبية وصفتها

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استوت به راحلته قائمة عند مسجد ذى الحليفة أهل.

فقال : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وكان عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - يقول هذه تلبية رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

قال نافع : كان عبد الله - رضى الله عنه - يزيد مع هذا لبيك لبيك ، وسعديك والخير بيدك لبيك ، والرغبا إليك والعمل .

و أخبر بعضهم عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما - قال : تلقفت التلبية من فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فذكر بمثل حديثهم .

(أخرجه مسلم)

في هذا الحديث الشريف نتعرف على قصة " التلبية " التى تعارف عليها الناس طوال أربعة عشر قرناً من الزمان ، وهم يؤدون فريضة الحج أو واجب العمرة .. فكل حاج أو معتمر يبدأ حجة أو عمرته بهذه التلبية تعبيراً عن استجابته لأوامر ربه وطاعة له ولرسوله صلى الله عليه وسلم .

و عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - يحكى لنا قصة التلبية كما رآها وسمعها من فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيخبرنا أنه - صلى الله عليه وسلم كان إذا استوت به راحلته قائمة عند مسجد ذى الحليفة أهل .. أى إنه عند بداية إحرامه من الميقات المكانى للحج والعمرة بالنسبة لأهل المدينة ، وهو " ذى الخليفة " وركب راحلته ، أى ناقته التى تحمله من المدينة إلى مكة لأداء الحج

والعمرة . أهلّ أى بدأ ، والاستهلال هو البدء فى كل شىء ، واستهلال الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبدأ بالتلبية قائلاً :

لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد
والنعمة لك و الملك لا شريك لك .

و التلبية معناها الاستجابة أو الإجابة ، ولذا فعندما يلبى الرسول - صلى الله عليه وسلم - قائلاً : لبيك اللهم لبيك .. أى الاستجابة لك يا رب بعد استجابة ، وطاعة بعد طاعة والتزاماً بعد التزام .. كأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعلمنا : أن الإسلام هو الاستجابة والطاعة والالتزام ، فليس لأحد أن يخالف عن أمر ربّه ، طالما قبل بالدين الحنيف ، و آمن بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وقبل بالأوامر والنواهي التى وردت فى الكتاب والسنة ، وهو ما يعنى الاستسلام الكامل والخضوع التام لمنهج الله دون تعديل أو تحريف أو تاويل خبيث؛ كما يحلّ لبعض المنافقين ممن طمس الله على قلوبهم وأثروا الدنيا على الآخرة ، وتصوروا أن الإسلام يشبه النظريات الوضعية أى التى يضعها البشر ، فيفسرونها على هواهم ، ويشرحونها بما يتفق وأغراضهم الدنيوية ولعل هؤلاء هم الذين قصدتهم الآية الكريمة فى قوله تعالى :

".....أَفْتَوْمُنُونَ بِنِعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُورٍ بِبَعْضِ مَا جَزَاءُ
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ" (البقرة : ٨٥)

و تحمل التلبية معنيين مهمين ، يشكّلان العمود الفقري للإسلام ، وهما : التوحيد ، والإقرار بالعبودية لله .. فالحاج أو المعتمر حين يعلن طاعته لله ، فإنه يقرنها بالتوحيد : لبيك لا شريك لك " والتوحيد هو نفى كل ما عدا الله ، من مخلوقاته أو كائناته التى يتصور بعض الناس أنها يمكن أن تنفعهم أو تضرهم .

فالذين عبدوا الحكام و الأصنام أو خضعوا للأقوياء أو ذوى الجاه والأموال ؛
يشركون بالله الذى يملك كل شىء ، و يخضع له كل الخلق و الكائنات وما على
الأرض وما تحتها ، و السماء وما فوقها ... إنه الملك الواحد الأحد ، الفرد الصمد ،
الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحداً .

و إذا كان التوحيد هو المعنى الأول للتلبية ، فالعبودية هى المعنى الثانى ،
الذى يقر فيه المسلم بعبوديته الكاملة لله و نفهم ذلك من قول الحاج و المعتمر إن
الحمد و النعمة لك و الملك " فهو المحمود على عطائه ، وهو المشكور على نعمائه التى
يهبها لعباده جميعاً يطعمهم و يسقيهم و يمنحهم الصحة و العافية ، و العمل و الأمل ،
وهو قبل ذلك و بعده صاحب الملك الذى لا يشاركه فيه أحد من خلقه ..

لذا كانت التلبية ليست مجرد دعاء أو هتاف ينطق به الحاج أو المعتمر ،
ولكنها إعلان حى و مباشر عن الطاعة و الالتزام لملك الملك و صاحب الكون ، بل إن
الزيارة التى رآها ابن عمر ، فى تلبيته : لبيك لبيك ، و سعديك ، و الخير بيدك
لبيك ، و الرغباء إليك و العمل ، هذه الزيارة تؤكد لما سبق من معنى التلبية ، فهو
يكبر الاستجابة و الطاعة ، ثم يطلب منه المساعدة بعد المساعدة بقوله " وسعديك "
كأنه يقول يا رب مساعدة منك بعد مساعدة كما يسند إليه الخير ، و الرغباء و العمل .
و الرغباء أو الرغبي : تعنى الطلب و المسألة ، أى الرغبة إلى من بيده الخير ، وهو
المقصود بالعمل الحقيقى بالعبادة .

و المسألة ، أى الرغبة إلى من بيده الخير ، وهو المقصود بالعمل الحقيقى
بالعبادة . لقد تلقف ابن عمر التلبية من فى أو فم رسول الله - صلى الله عليه وسلم
ونقلها إلى الناس و ساءوا عليها حتى يومنا هذا .. فكانت تعبيراً عن إيمان
و خضوعاً لخالق الأرض و السماء .

الحج .. و التجارة

عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال :
كانت عكاظ و مَجَنَّةُ و ذوالمجاز أسواقاً فى الجاهلية ، فتأثموا أن يتجربوا
فى المواسم ، فنزلت

" لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ " (البقرة ١٩٨)

رواه البخارى

هذا الحديث الشريف يحكى أمراً يقص التشريع الإسلامى . وهو التجارة
فى موسم أو مواسم الحج .

وكانت العرب فى الجاهلية تتخذ من مواسم الحج على الطريقة التى
كانت سائدة آنئذ ، فرصة لإقامة الأسواق التجارية التى يتكسبون منها ، فضلاً عن
إقامة المناظرات الأدبية و الشعرية بين الأدباء و الشعراء مع كبار النقاد بمفهوم
ذلك الزمان ..

كانت عكاظ من أشهر أسواق العرب فى الجاهلية و أعظمها ، وكان
موقعها وراء مكان يقال له " قرن المنازل " بمرحلة أى عدة أميال ، و يتبع مدينة
الطائف الشهيرة على طريق اليمن . و كان سوقها يعقد أو يقام فى شهر ذى القعدة
و يستمر لمدة أسبوعين تقريباً ...

و بعد الانتهاء من سوق عكاظ ، يتركونه إلى مكان آخر فى مكة يقال
سوق مَجَنَّةَ فينصبون السوق أسبوعين آخرين .. أى إن سوق عكاظ تستغرق نصف
الشهر الأول من ذى القعدة ، و ذى المجنة تستغرق نصفها الآخر .

و بعدئذ ينتقلون إلى مكان آخر قريب من سوق مجنة يقال له " ذوالمجاز "
فيقيمون فيه السوق حتى يوم التروية ، قبل يوم عرفة بيوم واحد ، يوافق الثامن من

ذى الحجة ، حيث ينتهى السوق ، ويذهبون بعده إلى منى لإكمال مناسك الحج وفقاً لمفهومهم الجاهلى .

قضية الأجر والكسب فى مواسم الحج ، إذا كانت عادة جاهلية قديمة مورثة وكانت مصدر رزق لكثيرين ينتظرونها من العام إلى العام . فلما جاء الإسلام أحسن المسلمون بشىء من الحرج ، وشعروا أن التجارة لا تليق مع أداء المناسك على أساس أن الحج عبادة ، والعبادة لا تتفق مع التجارة .. ولكن الله الرؤوف الرحيم بعباده لم يشأ أن يحرمهم من الرزق الذى ينتظرونه كل عام ، فنزلت الآية الكريمة تبيح لهم أن يتجددوا و يكسبوا وهم يؤدون المناسك ويقبضون الشعائر .

قال تعالى : "لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَانَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ "

(البقرة : ١٩٨)

و نجد فى هذه الآية الكريمة ربطاً بين العمل والعبادة ، أوبين التجارة وذكر الله ، وهذا جانب من التيسير الإلهى على عباده ، ليخدم بعضهم بعضاً ، ولنا أن نتصور مثلاً أن كل الحجاج جاءوا لأداء المناسك وحدها ، ووقفوا حياتهم فى أثناء الحج على العبادة وحدها ، فمن ذا الذى يقدم لهم الطعام والشراب ، ومنذا الذى يقودهم فى المواصلات ، ويقدم لهم الخدمات الأخرى التى يحتاجونها فى العلاج والدواء والاتصالات وغيرها ؟

لابد إذاً أن تكون هناك طائفة تقدم هذه الخدمات ، ولا بأس عليها أن تؤدى مناسك الحج ، وتستفيد بالوفاء بهذه الفريضة أو هذا الركن الخامس الذى يجب على المسلم أن يؤديه ليكتمل إسلامه .

ولاشك أن الحج ليس موسم تجارة أساساً بل موسم عبادة . ولكن لتجارة تأتي هامشاً إلى جانب العبادة ، والمشكلة تكمن فيمن يجعلون التجارة هي الهدف وهي الغاية حيث يضيعون العبادة ، والمشكلة تكمن فيمن يجعلون التجارة هي الهدف وهي الغاية حيث يضيعون ثوابهم . لأن انشغالهم في هذه اللحظة ليس بالله . ولكن بالأموال ، وشتان بين هذا الانشغال أو ذاك .

إن الحج موسم من المواسم المباركة التي تعبر عن وحدة الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاريها ، وتسقط فيما بينها حواجز العرق واللون والعنصر والغنى والفقير والطائفة والمذهب ، وتتلاقى جميعاً حول هدف واحد هو التجرد لطاعة الله سبحانه ، والامتثال لأوامر ، وبالإضافة إلى ذلك تتشاور فيما يعينها ويهيمها ، وتسعى إلى معالجة مشكلاتها وقضاياها بما يخدم الإسلام والمسلمين .

قال تعالى : "وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ" (الحج . ٢٧-٢٨)

و الآية الكريمة نتحدث عن " المنافع " . بصيغة التنكير ، أى مطلق المنافع فليست التجارة وحدها هي المنافع ، ولكن هناك منافع أكثر حين يلتقى المسلم بالمسلم فيتعارفان ، ويعلم أحدهما ما يعانیه الآخر ، وأوجه المساعدة التي يمكن أن تقدم له .

وفي كل الأحوال ، يأتي الفضل الإلهي من خلال التيسير على المسلمين في التجارة وغيرها . "لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ..." (البقرة : ١٩٨) وهو الفضل الذي لا تحده حدود ، ولا يتوقف .

دعاء العودة من الحج و الجهاد و السفر

عن عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - قال :
كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قفل من الجيوش أو السرايا أو الحج
أو العمرة إذا أوفى على ثنية أو فدقد كبر ثلاثاً ، ثم قال :
" لا إله إلا الله وحده . لا شريك له . له الملك و له الحمد وهو على كل
شئ قدير . آيبون تائبون عابدون ساجدون . لربنا حامدون . صدق وعده .
ونصر عبده . و هزم الأحزاب وحده " أخرجه مسلم

.....
.....
.....
إذا كان المسلم وهو يتهبها للسفر إلى الحج أو إلى مكان آخر ، يدعو دعاء السفر الذى
سدقت الإشارة إليه فى مكان آخر ، ويبدأ بالآيتين الكريهيتين من سورة الزخرف
: ".....سُبْحٰنَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا
لَمُنْقَلِبُونَ " (الزخرف: ١٣-١٤)

اعترافاً بقدره الله و حمداً على نعمائه . فإنه بعد عودته من الحج أو الجهاد
أو السفر عموماً يدعو الدعاء ذاته الذى قاله فى بداية سفره ، و يزيد عليه . أو يقول ما قاله
الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى حديث ابن عمر الذى بين أيدينا ، وهو يحمل المضمون
نفسه أو قريباً منه . ولكنه يركز على فكرة أساسية تربطه بربه فى كل الأحوال .
و يصف عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - عودة الرسول - صلى الله عليه
وسلم ، أو قفوله من الجيوش ، أى رجوعه مع الجيوش بعد الحرب ، أو السرايا أو الحج أو
العمرة . فيقول إنه إذا أوفى أى اقترب أو دخل على ثنية أى منعطف ، أو فدقد أى موضع
من الأرض فيه غلظة و ارتفاع ، كبر ثلاثاً ، أى قال : الله أكبر ثلاث مرات ، و التكبير هنا له
دلالة على الطاعة و الخضوع لله مالك الملك ، فهو الله الأكبر و الأحق بالذكر فى المواضع
التي تبدو مستعصية أو موحشة أو مخيفة ، أو تمثل بالنسبة للإنسان حالة تدهشه أو تحيره..
فالتكبير هنا إعلان عن إسلام القلب لله ، و تعظيم له ، و ترك الأمر بين يديه فيما نعلم أو لا
نعلم من أمر الظواهر الطبيعية أو غيرها .

إن السفر فى حد ذاته للجهاد أو الحج أو العمرة أو العمل أو صلة نوى
الأرحام أو حتى السياحة بالنسبة للمسلم هو حركة فى اتجاه خدمة الدين و طاعة الله و
إقامة الشريعة و نصره الإسلام .. و لبعض العلماء رأى لطيف فى هذا السياق، يرى أن

التكبير فى الأماكن العالیه يشبه الأذان فوق المساجد ، والأذان كما نعلم هو تعبير عملى عن تعظيم الحق سبحانه ، وتسبيحه وحمده تعالى . واعتراف بقدرته وهيمنته . وتمايم عمته على المسلمين بالنصر والعزة ..

و بعد التكبير ، فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يؤكد على المعانى السابقة التى يحملها الأذان ، فهو يعلن التوحيد أو وحدانية الله الذى لا شريك له " لا إله إلا الله وحده لا شريك له " ، وإعلان الوحدانية ليس مجرد تحصيل حاصل خاصة فى الأزمنة التى يخضع فيها بعض الناس لبعض من أجل المال أو الجاه أو السلطان أو المنفعة الدنيوية الفانية - ولكنه يمثل تذكيراً لهؤلاء وغيرهم بأن الله وحده هو صاحب الحول والطول ، وهو المهيمن القاسم ، وهو الذى يملك الضر والنفع ، فينبه الغافلين ، ويوقظ الخاملين ، ويحيى النفوس الراكدة . " لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له " حماية للقلب والعقل من الاستسلام لمن ظنوا أنفسهم - توهماً وخطأ - أنهم يملكون رقاب الناس أو يستطيعون التحكم فى مصائرهم .

ولعل ما تلا ذلك من الدعاء فى الحديث الشريف يؤكد ما سبقت الإشارة فالرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول : " له الملك و له الحمد وهو على كل شىء قدير " فالوحدانية تقتضى أن يملك الحق سبحانه الكون وما فيه من نعم وآلاء وهو ما يجعله يستحق الحمد على ما أعطى للخلق ويسر لهم من وسائل الحياة والعيش فهو على كل شىء قدير ، ولا أحد يقدر على ما يقدر ، ولا يملك ما يملك .

وهنا يذكرنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالواقع ، وهو العودة من الرحلة بقوله : " آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون " وآيبون أى عائدون ، تائبون من كل ذنب وإثم ، طالبون للغفران والعفو ، ساجدون لله فى صلاتنا وعبادتنا .. ثم لربنا حامدون .. والحمد هو اعتراف بالنعم الإلهية وشكر للمنع الذى أنعم بها ، وهو الله جل جلاله .

وفى ختام الدعاء إشارة إلى بعض ملامح نعمه وأفضاله على عباده . خاصة المسلمين حين يقول - صلى الله عليه وسلم - " صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده " مذكراً بما جرى فى غزوة الأحزاب حين هزم الكفار بإرسال الريح والجنود غير المنظورين عليهم فارتدوا مهزومين ، وصدق الله وعده بنصر عبده محمد ، ونشر الإسلام فى ربوع الجزيرة العربية ومن بعدها العالم كله ..

فالحمد لله وحده ، وصدق وعده ، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . وهو وعد قائم فى كل زمان ومكان .. طالما كنا آيبيين عابدين ساجدين عاملين بأوامره طائعين له .

اتقاء الشبهات

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما - قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم - يقول :

إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن ، وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات ، فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب "

متفق عليه وروى بالفاظ متقاربة

يقودنا هذا الحديث الشريف إلى ضرورة التحرى والتثبت فى مسألة الحلال والحرام ، وهى مسألة صرنا أحوج ما نكون إليها فى عصرنا الذى يحفل بكثير من الأمور التى يختلط فيها الحلال والحرام ، والصواب والخطأ ، ومع قلة الدرس الفقهي وسطحية تعليم الشريعة ، يتوجب على المسلمين أن يفقهوا دينهم ، ويدرسوا شريعتهم بما لا يعطى مجالاً للخلط أو سوء الفهم .

ورواية النعمان بن بشير رضى الله عنهما تشير إلى ما سمعه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن وضوح الحلال والحرام .. الحلال بيّن ، أى واضح وظاهر .

و الحرام بيّن ، أى واضح وظاهر .. فإذا قلنا مثلاً إن التجارة الأمانة حلال فهذا أمر واضح لا يحتاج إلى بيان ، لأن التاجر الأمين لا يغش ولا يكذب ولا يدأس .

و العكس صحيح إذا قلنا إن الغش فى التجارة حرام ، فهو أمر معروف يدرکه الناس حين يرون السلعة غير التى اتفقوا عليها أو طلبوها من التاجر الغشاش ..

ومعنى ذلك أن الأمور الحلال التى أوضح الإسلام إباحتها معروفة ويجمع عليها الناس ، فضلاً عن علماء الأمة الثقات . أما الأمور الحرام فتم الإجماع عليها أيضاً مثل السرقة والزنا واللواط والغش والتدليس والشهادة الزور وغيرها . كل هذا يعرفه الناس ولا يحتاج إلى بيان ، بعد أن اكتمل الإسلام أو اكتمل الدين فى حجة الوداع .

"...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا"^(المائدة: ٣)

لكن هناك بعض الأمور المشتبهة التى يجد المرء نفسه حائراً أمامها لا يعرف أهى حلال أم حرام ؟ و يجد نفسه فى مأزق لا يعرف طريق الخلاص منه وخاصة فى الأمور التى استجدت بعد انتصار الإسلام و اكتماله ، و تطور الزمان و تعدد المكان ؛ فقد نشأت نتيجة لتطور الحياة و الزمان و المجتمعات و العلاقات ، و هذه الأمور يسهل الاحتكام فيها إلى أهل العلم و استفتائهم ، و معرفة الصواب من الخطأ ، و الحلال من الحرام ، لأنهم يملكون القدرة على القياس و معرفة أصول الحكم الفقهى و الشرعى . و اجتهادهم فى هذا السياق محمود ، و لهم الأجر مضاعفاً إن أصابوا ، و مفرداً إن لم يصيبوا .

بيد أن هناك أموراً غير ذلك تشبه على كثير من الناس ، و لا تتعلق بتطور و لا اكتشاف و لا اجتهاد .. إنها أمور ترتبط بالعلاقات و السلوكيات بين الناس ، و الدخول إليها يثير الشبهات ، و يجعل من يدخل فيها محل ريبة و شك مما يترتب

عليه ضرر كبير أو أذى عظيم ، مع أن النوايا قد تكون حسنة .. ولكن الناس لهم الظاهر والله يتولى السرائر..

فموضع الشبهة الذي يثير الريبة والشك ، يجب أن يكون المسلم على حذر منه ويتعد عنه ، حتى لا يسقط فيه .. ويقدم لنا الحديث الشريف مثلاً حياً لموضع الشبهة التي ينبغى للمسلم أن يحذرها ويتعد عنها .

و يخلص الحديث إلى أن لكل ملك حمى ، وحمى الله محارمه ، وهو ما ينبغى الابتعاد عن هذه المحارم والحذر من الوقوع فيها بعدم الاقتراب منها ، ويؤكد الحديث على أهمية إخلاص القلب لله في مثل هذه الأمور . فالقلب مضفة ، أى قطعة لحم إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسدت الجسد كله ، وهو ما يعنى أن على المسلم أن يتقى الشبهات أو ما يثير الريبة والشك فى أى مجال من مجالات القول والسلوك حتى لا تكون فتنة .

ومن اتقى الشبهات وابتعد عنها فقد استبرأ لدينه وعرضه ، أى صلب البراءة أو صار بريئاً فى دينه وعرضه ، وهو ما ينبغى أن يتنبه له كل مسلم وخاصة فى أيامنا التى تكثرت فيها المشكلات الاجتماعية بسبب الاقتراب من مواقع الشبهات أو الوقوع فيها ..

ولدينا مثل قديم يقول : احذر تسلم .

و صدق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم حين قال " فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه " والدين والعرض أغلى ما يحرص عليه المسلم فى كل زمان ومكان .

البر والإثم

عن وابصةَ بن مَعْبَدٍ ، رضى الله عنه ، قال : أتيت رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - فقال : " جئت تسأل عن البر؟ قلت : نعم .
فقال : استفت قلبك ، البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ،
والإثم ما حاك في النفس ، وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وافتوك "
حديث حسن رواه أحمد والدارمي

يقدم لنا الحديث النبوي الشريف قصة قصيرة للغاية حول البر والإثم ،
بطلها وابصة ابن معبد رضى الله عنه الذى قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم -
يسأله عن البر والإثم ليستقيم إيمانه ويصلح إسلامه .

وقد جاء وابصة بن معبد رضى الله عنه إلى رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - فى عشرة رهط من قومه بنى أسد بن خزيمه فى السنة التاسعة
للهجرة ، فأسلموا ورجع إلى بلاده ، ثم نزل الجزيرة ، وسكن الرقة ودمشق ، ومات
بالرقة ودفن عند منارة مسجد الجامع ، وقد روى عن النبي - صلى الله عليه
وسلم - أحد عشر حديثاً ، وكان كثير البكاء لا يملك دمعته ، وله عقب بالرقة أى
أفراد من نسله ينتسبون إليه ..

و يلاحظ هنا أنه حين جاء إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يسأل
ولكنه - صلى الله عليه وسلم - عرف أنه جاء سائلاً ، وأنه يسأل عن البر ، وهو ما
أكده وابصة بقوله : نعم .

و كانت إجابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قصة قصيرة
وشافية ومقنعة :

" استفت قلبك " أى اطلب الفتوى من قلبك ، من داخلك ، من ضميرك
الحى ثم شرح معنى البر والمقصود به :

البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمان إليه القلب ، والقلب المقصود فى
هذا الحديث ، هو القلب الصافى النقى الذى لم يتسلل إليه الهوى ، ولم تدنسه
الذنوب والآثام .. هو القلب الذى يحتفظ بفطرته الإنسانية التى لم تلوثها الأطماع
والانحرافات .

إنها فطرة اللّٰه التى فطر الناس عليها ، وهى التى فلتقى مع الإسلام دون
وساطة لأنها تعبير حقيقى عن طبيعته ومذهبه ومفاهيمه .

و اكرسول - صلى الله عليه وسلم - حين يقول : " البر ما اطمأنت
إليه النفس واطمان إليه القلب " فهو يعنى ما توافق مع الفطرة الإنسانية الصافية
النقية ويستشعره المسلم فى سلوكه وقوله ، ويرى أنه الصواب بعينه ، ولا يستشعر
فيه شيئاً من الشك أو الندم أو الإحساس بالخطأ أو الإثم ..

وعندما يستشعر المسلم أن هنالك شيئاً يقلقه أو يثير اضطرابه الوجدانى
أو يبعث على القلق ، فإنه يتوجه من فوره إلى سؤال أهل الذكر ليطمئن ويستريح
إلى القول الفصل الذى ينطق به العلماء والفقهاء ..

بل إن بعض الناس يشعر أن الأمر يقتضى ترك مسألة ما أو الابتعاد
عنها مع أن العلماء أفتوه بحلها وإباحتها ، لأنه بداخله يرى فيها حالة غير طبيعية
أو غير طيبة .. وهذا معنى " وإن أفكك الناس وأفتوك " .

فالفتوى ليست نهاية المطاف مع أصحاب الضمائر الحية والأفئدة
اليقظة والقلوب المتصلة بالحق سبحانه صلة إيمان وإخلاص ويقين .

إن تعبير الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن الإثم بقوله :
" الإثم ما حاك في النفس ، و تردّد في الصدر و إن أفتاك الناس
وأفتوك " يؤكد على الضمير الإسلامى فى حسم الأمور الغامضة أو المختلطة أو التى
لم يدر صاحبها بحلّها و حرمتها ..

الإثم ما حاك في النفس ، أى ما لم ترض عنه النفس البشرية و تشعر أنه
ليس حلالاً و ليس طيباً ، و تردّد فى الصدر ، أى يجد المسلم نفسه مؤزّعاً بين الرضا
و القبول من ناحية و عدم الرضا و عدم القبول من ناحية أخرى .

إن البرّ بمعناه الشامل لكل أنواع الخير و المعروف ترتاح إليه النفس
و ينجذب إليه القلب دون و بساطة و دون فتوى . و ما أحوجنا إلى النفس الصافية
و القلب الطاهر لإقامة المجتمع المتضامن المتعاون على الخير و المعروف .

و المسلم فى بحثه عن الحق و الحقيقة لا يرضى أن يفارق مواضع
الشبهات أو المسائل الشائكة التى توقعه فى دائرة الإثم و المعصية .. و قد يستهين
البعض من الذين لم يعمر الإيمان قلوبهم ، و يقيسون الحياة بمقاييس مادّية تقوم
على الريح المادى و الكسب العيى ، و هؤلاء من الذين ظلموا أنفسهم ، و ظلموا
دينهم و ظلموا أمّتهم و مجتمعهم لأنهم تناسوا أن الله سبحانه يرقب و يرى ،
و يحاسب و يجازى ، و أن هناك يوماً سيلتقى فيه البشر جميعاً . أعمالهم هى جواز
سفرهم إلى الجنة أو النار .

نسأل الله سبحانه أن يطهر قلوبنا لنتلقى ربّها و هى صافية نقية ،
ابتعدت عن الحرام ، و كل ما فيه شبهة حرام ، و اقتربت من الحلال ، و عملت به
وله ، و الله ولى التوفيق .

أهل الصفة - ١

عن عن طلحة البصرى - رضى الله عنه - قال : كان الرجل منا إذا قدم المدينة فكان له بها عريف نزل على عريفه ، فإن لم يكن بها عريف نزل الأُصْفَة .

فقدمت المدينة ولم يكن لى بها عريف . فنزلت الصفة ، وكان يجرى علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كل يوم مُدّاً من تمر ، ويكسوننا الخنف ، فصرى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - ذات يوم بعض صلوات النهار ، فلما انصرف ناداه أهل الصفة يمينا وشمالاً : يا رسول الله ، أحرق بطوننا التمر ، وتخزمت علينا الخنف !!

فمال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى متبره ، فصعده فحمد الله وأثنى عليه فذكر شدة ما لقي من قومه ، حتى قال :

" فلقد أتى على و على صاحبي بضع عشرة يوماً ، ومالى و له طعاماً إلا البربر . فقدمنا على إخواننا هؤلاء من الأنصار ، و عظم طعامهم التمر فواسونا فيه . فوالله لو أجد لكم الخبز و اللحم لأشبعتم منه . و لكن عسى أن تدركوا زماناً حتى يُغدى على أحدكم يجفنة . و يراح عليه بأخرى .. "

حديث صحيح أخرجه أحمد وآخرون

نحن فى هذه القصة النبوية التى يرويها الحديث الشريف ، بصدد قضية مهمة ، تعنى المسلمين فى كل زمان و مكان ، و تخاطب الوجدان الإسلامى ، فبهتز أمام احتياجات إخوانه من أهل الإسلام و غيرهم ، للإحسان إليهم و مساعدتهم ومد يد العون إلى المحتاجين والذين لا يجدون ما ينفقون ، كما تقودنا هذه القصة إلى

المقارنة بين زمن التضامن الإنساني والتكافل الاجتماعى فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وزمن آخر ينسى فيه المسلمون تعاليم الإسلام وقيمه ، فيتقاتلون ويتناحرون ، وتضيع هيبتهم ويقعون فريسة سهلة لأعدائهم وخصومهم .

إن طلحة البصرى - رضى الله عنه - يكشف لنا عن نمط من السلوك الاجتماعى على عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - يحقق للغرباء عن المدينة ما يحتاجونه من سكن وإقامة بوصفهم ضيوفاً جاء للعلم والتعرف على الإسلام من منبعه الأسمى وهو الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى يقيم فى المدينة المنورة . وإذا تأملنا اسم راوى الحديث " طلحة البصرى " سنجدُه منسوباً إلى " البصرة " وهى مدينة بعيدة عن المدينة تقع فى العراق ، والرجل - أى طلحة البصرى - قد جاء إلى المدينة ، ولم يكن له بها " عريف " أى مسئول عن أهل البصرة ونواحيها يستضيفهم ويقوم على أمورهم ومعاشهم حتى تنتهى فترة إقامتهم وينجزوا مهمتهم ، فذهب إلى ركن مظلل فى المسجد النبوى أطلق عليه ركن أهل الصفة حيث يجتمع المهاجرون الفقراء ، والبسطاء الذين لا يملكون سكناً ولا طعاماً .

وكان المسلمون يطلقون عليهم ضيوف الإسلام أو أضياف الإسلام ، ويخصص لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما يتاح له من طعام وكساء ..

ولا شك أن هذا المنهج يمثل صورة للتكافل الاجتماعى - وضع أساسها الرسول - صلى الله عليه وسلم - وسار عليه المسلمون من بعده ، وطبقوه بصور مختلفة على مستوى الوحدات السياسية الكبرى أو القرى والتجمعات السكنية الصغيرة فى شتى أرجاء الأمة الإسلامية .

وكان الأزهر مثلاً إلى عهد قريب يخصص " أروقة " فى مسجده الكبير لكل القادمين من شتى المناطق الإسلامية ، ويصرف لهم " الجراية " أو الطعام حيث يظلون مقيمين إلى أن تنتهى مدة تحصيائهم للعلم على شيوخ

الأزهر، ويرجعون إلى بلادهم لينهضوا بمهامهم فى مجال التعليم أو الوعظ أو الخطابة أو الإمامة .

و هناك من يعد " الصفة " بداية لما يعرف بالصوفية . حيث تعنى الزهد فى زخرف الدنيا ومتاعها ، والعيش عيشة التقشف والكفاف ، بعيداً عن صراع الحياة وطمغيانها ، والتفرغ للعبادة والطاعة .

وأيا كان الأمر ، فإن دلالة البصرى لم يكن له " عريف " بالمدينة ، ونزل على أهل " الصفة " ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يخصص لهم كل يوم مداً من تمر يتعيشون به أو يكون طعامهم اليومى ، وبالإضافة إلى ذلك يجعل لهم كساءً من الخنف وهو نوع ردىء بل أردأ أنواع الكتان الغليظ الخشن .

وكما نرى فالطعام والكساء كانا متواضعين للغاية ، ويحفظان الحياة بصعوبة وهو ما دعا أهل الصفة إلى الشكوى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما يعانونه من سوء الطعام والكساء جميعاً . وقد اغتموا فرصة انتهائه - صلى الله عليه وسلم - من الصلاة ذات يوم ، فقالوا له : " يا رسول الله أحرق بطوننا التمر . و تحرقنا علينا الخنف " أى إنهم من أكل طعام واحد فقد احترقت بطونهم ، و تمزقت ملابسهم الكتانية الرديئة من طول استعمالها . وكان رد الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن صعد المنبر ، وحمد الله وأثنى عليه ، وذكر لهم من أجل أن يواسيهم ويصبرهم شديد ما لقيه على يد قومه فى مكة قبل الهجرة ، وكان إيذاءً وحصاراً و ملاحقة .. وهو الأمر الذى استمر فى أثناء هجرته وشاركه المعاناة صاحبه أبو بكر رضى الله عنه .

أهل الصفة - ٢

شكا أهل الصفة من سوء الطعام و تخرق الثياب ، فصعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - المنبر وأخذ يواسيهم ويتمنى لو كان لديه خبز ولحم ليشبعهم منه. ورجا لهم زمناً أفضل تقدم لهم فيه جفنة طعام بعد أخرى .

" فقالوا : يا رسول الله ، أنحن اليوم خير ، أو ذلك اليوم ؟

قال : " لا ، بل أنتم اليوم خير ، أنتم اليوم متحابون ، وأنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب بعض " .

لا ريب أن موقف أهل الصفة مما يعانونه من سوء الطعام أو تخرق الثياب هو أمر طبيعى تفرضه الطبيعة الإنسانية التى لا تصبر على طعام واحد ، ولا ترضى بلون واحد من المأكولات ، وهؤلاء الفقراء المساكين الذين يعيشون على التمر ، ويرتدون أسوأ أنواع القماش وهو الخنف أو الكتان الرديء جداً ، مرّت بهم أيام طويلة ، ولم تتغير حالهم فكانت شكواهم إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليهم يجدون عنده حلاً يغيّر من هذا الواقع البائس .

و تقبل الرسول -- صلى الله عليه وسلم -- شكواهم بروح طيبة حانية ، لم يتأفف ولم يغضب ولم يقل لهم : أنتم ترون الواقع و تعرفون ما فيه فلا تتكلموا ولا تثوروا .. ولكنه صلى الله عليه وسلم - أدرك بحسه الإنسانى وشعوره النبوى ، أن أهل الصفة مظلومون ويجب أن يقف إلى جانبهم ويصبرهم ويواسيهم .. وهو ما جعله يميل إلى المنبر ، أى يتجه إليه ، ثم يصعد ، ويبدأ فى خطبته بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهل له .

كان من الطبيعى أن يذكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما عاناه والمسلمون الأوائل من شدة ومعاناة على يد مشركى مكة الذين طاردوهم

وحاصروهم وعذبوهم ، وقد كان هنالك حصار مشهور في شِعب أبي طالب ، حيث لم يجد المسلمون الطعام فاضطروا إلى أكل العشب وأوراق الشجر كي تستمر الحياة.. إلى أن ذن الله بالفرج ، وتم فك الحصار..

و يشير الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى حدث قريب يعرفه أهل الصفة وهو هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع صاحبه أبي بكر من مكة إلى المدينة ، وقضى في رحلة الهجرة أياماً صعبة زادت على العشرة أيام ، لم يأكل فيها وصاحبه طعاماً إلا البربر ، وهو تمر الأراك ، أي إن طعام النبي - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه كان يشبه طعام أهل الصفة الذي يشتكون منه ، ويقولون إنه أحرق بطونهم .

لقد صبر النبي - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه على هذا الطعام ، حتى وصلا إلى المدينة ، وجاء الأنصار لمواساتهم ، فقدموا لهما التمر ، وهو غالب طعامهم الذي يفتاتون عليه . وكان لا مفر من القبول بهذا الطعام ، لأنه الواقع المتاح ، مع الصبر الجميل حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وما ذكره الرسول - صلى الله عليه وسلم - لترضية أهل الصفة ، واستعرض فيه ملاقاة من قومه ، وما عاناه في الهجرة إلى المدينة ، كان ضرورة ليعلن لهم عن أمنيته بل رجائه أن يدركوا زمانا ، ويلحقوا عصراً ، أفضل وأسعد . إنه يقسم بالله لو أنه يملك الخبز واللحم لأشبعهم منه ، أي يقدمه لهم ليأكلوا حتى تتلى بطونهم ويكفوا عن تناول الطعام ، ولكنه يرجو أن يأتي الزمان الذي يتحقق لهم فيه ذلك ، فتقدم لهم الجفنة بعد الجفنة ، والجفنة هي الإناء الكبير الواسع الذي يوضع فيه الثريد وفوقه اللحم . وهو الطعام المفضل عند أهل الجزيرة العربية .

وبلا شك ، فقد نزل كلام الرسول - صلى الله عليه وسلم - على أهل
الصفة برداً وسلاماً ، وأراح نفوسهم وأفندتهم ، وهبأهم فرصة التساؤل عن الزمن
الحاضر الذى يعيشونه ، و الزمن الذى سيأتى من بعدهم :

" يا رسول الله ، أئمن اليوم خير . أو ذلك اليوم ؟ "
يقصدون المستقبل !

إنهم من شدة المعاناة يتطلعون إلى يوم خير من يوم المعاناة الذين يعيشون
فيه .. وكانت إجابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالنفى لسبب واضح يذكره "
لا ، بل أنتم اليوم خير ، أنتم اليوم متحابون ، وأنتم يومئذ يضرب بعضكم رقاب
بعض ! " .

خيرية اليوم الذى يعيشونه - مع الفقر والجوع - ترجع إلى الحب والتراحم
والمودة التى تسوء بينهم ، وتحكم علاقاتهم وسلوكهم ، وتجعلهم يتكافلون
ويتراحمون .

أما اليوم الآخر ، الذى سيأتى فى المستقبل بعد يومهم هذا ، فسببه
الأنانية والأثرة وحب المادة وانتفاء التكافل والتراحم ، وهو ما يؤدي إلى الكراهية
والبغضاء والعدواة فيضرب المسلمون بعضهم رقاب بعض ، أى يقتتلون فيما
بينهم، مما يضيع هيبتهم ويغرى بهم أعداءهم ، ويجعلهم قصعة الأمم . إنهم يؤمئذ
تخلوا عن المنهج الإسلامى الذى يقدم الروح على المادة ، والقيمة على الثروة ،
والمعنى على الشكل ، والآخرة على الدنيا سعياً ، ليعيش المسلم فى أمن وسلام
ورضاً ، أما إذا تعلق المسلم بزخرف الدنيا ومتاعها فهو بلا ريب يحيا فى اضطراب
وقلق وعدم اطمئنان ، ويسلم نفسه للغواية مع الشيطان التى تنتهى بالدم
والصراع والدمار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

دفاع الملائكة - ١

عن أبي هريرة رضى الله عنه - قال :

إن رجلاً شتم أبا بكر، ورسولُ الله - صلى الله عليه وسلم - جالس، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم - يعجب وابتسم، فلما أكره ردّ عليه بعض قوله، فغضب النبي صلى الله عليه وسلم - وقام، فلحقه أبو بكر، فقال :
يا رسول الله، كان يشتمنى، وأنت جالس، فلما رددت عليه بعض قوله غضبت و قمت !! قال : " إنه كان معك ملك يردّ عنك، فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان . فلم أكن لأتعد مع الشيطان "...
حديث صحيح أخرجه أحمد والطيبراني

في هذه القصة النبوية التي يحملها الحديث الشريف ؛ منهج إسلامي يبين طبيعة التعامل الإنساني والسلوك الإجتماعي الذي ينبغى أن يسود بين المسلم والمسلم . بل بين المسلم وغيره ، سعياً لبناء مجتمع إسلامي متماسك وقوي ، يرقى أفراداه في علاقاتهم اليومية والإنسانية إلى مستوى عال من النضج والاحترام و التسامح والرفق .

إن الخلق الكريم هو أساس العلاقة بين أفراد المجتمع الإسلامي ، بما فيه من غير المسلمين ، وكان الوصف الأسمى الذي وُصف به الرسول - صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم ، هو قوله تعالى : " وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ " (القمم : ٤) فالخلق سبحانه يصف نبيه صلى الله عليه وسلم بصاحب الخلق العظيم وهو ما يعنى أن قيمة الخلق العظيم في السلوك الإسلامي ، تسبق أية قيمة أخرى ، بل هي جماع كل القيم ..

و إذا كانت صفة الخلق العظيم للرسول - صلى الله عليه وسلم - هي تقرير الواقع الحقيقي الذي كان عليه نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - فهناك إشارات قرآنية إرشادية لتطبيق هذا الخلق العظيم ، منها قوله تعالى :

"حَذِّ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" (الأعراف: ١٩٩٠)

وهى أمر مباشر بالعفو والمعروف والإعراض والبعد والتجاوز عن الحمقى وأصحاب الأخلاق غير الكريمة ، وهو ما يقود إلى التذكير بموقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى القصة النبوية التى بين أيدينا كما سنرى ، وهناك إشارة فى توجيه عام لجمهور المسلمين حين يصطدمون بهؤلاء الحمقى أو سرى غضب أو سبى الخلق حيث يصف الحق سبحانه عبادة المؤمنين بأنهم :

"وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" (الفرقان: ٦٣)

و المسألة حلة أساسية من حلال المسلم الحق ، فهو ليس شتاماً ولا لقاناً ولا فاحشاً ولا بذياً ، والحديث الشريف صحيح فى ذلك ، حيث نقرأ قوله - صلى الله عليه وسلم - " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " .

و نقرأ له حديثاً آخر يتضمن هذا المعنى بصورة أخرى : " ليس المسلم بطعان ولا فاحش ولا بذىء " .

وهو ما يقودنا إلى فهم القصة التى بين أيدينا ، وفهم السبب الذى دفع الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ترك المجلس الذى كان يجلس فيه مع أبى بكر ، وعدم رضاه عما رآه و سمعه .

لقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يجلس مع أبى بكر رضى الله عنه وإنه برجل لم يحدد الحديث الشريف هويته ، من هو ؟ أو من يكون ؟ ولكنه بالتأكيد من المجتمع الإسلامى وقد جاء إلى المجلس ، ووجه الشتائم إلى أبى بكر رضى الله عنه .

و نحن نعلم من هو أبو بكر.. أول من أسلم من الرجال ، والصديق الذى آمن بالرسول - صلى الله عليه وسلم - و صدقه حين كذبه قومه ، وهو الذى كان ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . والصديق هو صاحب المواقف العديدة فى نصرته الإسلام و دعم المسلمين .. أبو بكر يثير غضب

الرسول - صلى الله عليه وسلم - حين يرد بعض الشتائم على من شتمه ، فيترك المجلس ويغادره ..

ولا يَحْتَجِّنْ أَحَدٌ فِي هَذَا الْمَجَالِ بِأَنَّ اللَّهَ بِأَمْرِنَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :
"فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى
عَلَيْكُمْ" (البقرة : ١٩٤)

بردَ العدوان ، وكيل الصاع صاعين لمن شتمنا أو سبنا أو قذفنا . فهذا التوجيه خاص بالمواجهة مع الأعداء الذين يأتون بجيوشهم أو قواتهم المسلحة للإعتداء علينا أو غزونا أو إذلالنا . أما أخوة الإسلام و أفراد المجتمع الإسلامى فينبقى أن يسود الرقى الخلقى والتسامح الإنسانى فيما بينهم ...

و هذا ما فسّره الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأبى بكر - رضى الله عنه - حين تدارك الموقف ولحق بحبيبه - صلى الله عليه وسلم - يستكشف سبب مغادرته للمجلس ، وإحساسه بغضبه مما رأى وسمع .

فقد قال له الرسول - صلى الله عليه وسلم - " إنه كان معك ملك يرد عنك فلما رددت عليه بعض قوله وقع الشيطان . فلم أكن لأقعد مع الشيطان " .

إنذا هذا هو التفسير الأوّلى للمغادرة والغضب . حين كان أبو بكر - رضى الله عنه - يلقى الشتائم من ذلك الوافد على المجلس . فإن ملكا من الملائكة الكرام كان مع أبى بكر يرد عنه ، سواء بإحصاء سيئات الشتم أو بتسجيل الحسنات للمشتوم الذى هو أبو بكر وعندما قام أبو بكر ببرد بعض الشتائم ، انتهى دور الملك ، وبدأ دور الشيطان ، أو وقوع الشيطان وحلول فى المكان بين الشاتم والمشتوم ليشعل العداوة بينهما ، وهو ما يرفضه الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولا يرضاه لنفسه - وهو ما عبر عنه بقوله ، فلم أكن لأقعد مع الشيطان " . ولتلقى مع تفسير أوسع وأرحب للموضوع فيما يلى .

دفاع الملائكة - ٢

غضب الرسول - صلى الله عليه وسلم - وترك مجلسه مع الصديق أبى بكر رضى الله عنه لأنه ردّ بعض الشتائم على شاتمته . و أعلن عن غضبه مبيناً لأبى بكر أن ملكاً كان يرّد عنه ، ولما ردّ هو وقع الشيطان ، وما كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليقعد مع الشيطان ..

ثم فسر المسألة تفسيراً أوسع و أرحب حين قال صلى الله عليه وسلم : " يا أبا بكر، ثلاث كلهم حق : ما من عبد ظلم بمظلّمة فيغضى عنها لله - عزوجل إلا أعزّ الله بها نصره ، وما فتح رجل باب عطية ؛ يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة " صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم

.....
في هذه القصة النبوية الشريفة ، يلفت نظرنا موقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حالين .

الحالة الأولى : هي تعجبه و ابتسامه ، عندما جاء الرجل الذى شتم أبى بكر الصديق - رضى الله عنه .

الحالة الأخرى : هي غضبه و مغادرته للمجلس .

فلماذا ابتسم أولاً ، و لماذا غضب ثانياً ؟

الإجابة بسيطة للغاية ، وهى أن ابتسام الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان والله أعلم نوعاً من تهدئة الشخص الذى جاء يشتم أبى بكر ، و إشعاره بتجاوزه مما يحتم عليه أن يتراجع ويكفّ عن شتائمه وربما يسارع بالاعتذار لأبى بكر وترضىته ، ثم إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبتسم لدفاع الملك عن أبى بكر ، وردّه على الشاتم نيابة عنه .

أما الغضب ، فكان نيجة لأن أبى بكر أخذ يثار لنفسه ، ويردّ بعض الشتائم مما جعل الملك يتوقف عن الدفاع عنه ، ثم يقع الشيطان ، و عندما يقع

الشیطان معنی یحضر فی المجلس فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا یجلس فی مجلس فیهِ شیطان لا یرید الخیر بالشانم أو المشتوم وهو ما یؤدی إلى شرّ مستطیر بین الطرفين .

ولا ریب أن نهوض الرسول - صلى الله عليه وسلم - من المجلس كان تعبيراً عملياً عن رفض الإسلام لمنهج الإساءة المتبادل بین المسلمین . فالمسلم مطلوب منه ألا یرد على أخیه المسلم الذی یشتمه فالملائكة تتولى الدفاع عنه ، ثم إن الصیر على الأنبی له ثوابه وله تأثيره أيضاً على من قام بالأنی ، إذ یصبح فی وضع الظالم الذی یرفضه المجتمع ویتحاشاه حتى یكف عن أذاه ویستقیم على الجادة ..

و الرسول - صلى الله عليه وسلم - یوضح ذلك لأبی بكر؛ رضی الله عنه . فی إطار أوسع وأرحب حین یوضح لأبی بكر ثلاثة أمور مهمة فی سلوك المسلم ..

الأمر الأول : هو أن التسامح مع المعتدی بالإساءة والشتم والأنی ، ابتغاء وجه الله خیر وأبقى ، لأن الله یعز المتسامح المظلوم ، وینصره ، وهو ما یعنیه قوله - صلى الله عليه وسلم - " ما من عبد ظلم بمظلومة ، فیغضی عنها لله - عزوجل - إلا أعز الله بها وینصره " .

و مفهوم هنا أن الظلم هنا هو ما یتعلق بالعلاقات الشخصية ، بین فرد وآخر فالشخص الذی یظلم شخصاً آخر بالإساءة إليه ، فیغضی عنه الآخر - أى یعفو ویتسامح تقرّباً إلى الله ، فإن الله سینصره وسیعّره ، ویکافئه على عفوه ویتسامحه بصورة وأخرى .

أما الظلم العام الذی یتعرض له الناس أو یتوجب قصاصاً من الظالمین ، فامر آخر یحتم التصدی لردّه و لیستقیم امر المجتمع وتصلح الحیاة ، مع تقديم العفو وتفضیله على القصاص یقول تعالی :

"وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ أَعْمُرٍ" (الشورى: ٤٣)

وهناك دعوة عامة إلى جمیع أفراد المجتمع الإسلامی تدعوهم إلى المسارعة إلى الخیرات والجنة بالإنفاق فی سبیل الله وكظم الغیظ والعفوعن

الناس . وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٤﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعِيْظِ وَالْعَافِينِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (آل عمران ١٢٣-١٢٤)

الأمر الثاني : يتمثل في العطاء لوجه الله ، وهو أمر يُقَرَّبُ ما بين الناس ، ويوطد علاقاتهم ، وعبر عنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بقوله :

"وما فتح رجل باب عطية ، يريد بها صلة إلا زاده الله بها كثرة" . ونحن نعلم أن الحسنة بعشر أمثالها . وتأمل قوله - صلى الله عليه وسلم - فتح باب عطية ، كأن العطية بناء كبير له باب تفتحه النفس الخيرة ، الميالة إلى الجود والكرم ، فتربط ما بينها وبين الناس بصلة قوية وأصرة متينة ، وكان العطية ماء يطفى نيران الإساءة والأذى والتحرش بالآخرين .

أما الأمر الثالث و الأخير : فيأتى كأنه عكس الأمر السابق ، وهو "السؤال" أو الطلب من الغير دون ضرورة أو حاجة ، فهو وبال على صاحبه حاضراً ومستقبلاً ، فضلاً عن كونه صفة تتنافى مع العفة والترفع وعزة النفس ، وعبر الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك بقوله : " وما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة " فالغنى ليس بالمسألة ، وإنما بالقناعة وغنى

النفس ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أولئك الذين يترفعون عن المسألة :

.....تَحَسَّبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْهُ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَتِهِمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْافًا وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (البقرة : ٢٧٢)

أما المسألة لغير ضرورة ، فهي لا تورث غنى بل تورث فقراً وبؤساً .

إن مقابلة الشتم بالشتم ليست من أخلاق الإسلام ، وقد قدم لنا الرسول - صلى الله عليه وسلم - درساً عملياً من خلال ما حدث لأبي بكر رضى الله عنه ، وأوضح لنا كيف تكون العلاقة بين الناس قائمة على المودة والتسامح والتعاطف والعطاء والتعفف .

قصة غزوة بدر و الأسرى - ١ -

عن عبد الله بن عباس - رضى الله عنهما - أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حدثه فقال :

لما كان يوم بدر نظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله - صلى الله عليه وسلم - القبلة ثم مدّ يده فجعل يهتف بربه :

" اللهم أجزلى ما وعدتني ، اللهم أت ما وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض ."

فما زال يهتف بربه ماداً يديه ، مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فاتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فآلقاه على منكبيه ، ثم التزمه من ورائه ، وقال :
يا نبي الله كذاك مناشدتك ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عزوجل :
"إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمُتَّبِعَةِ مُرْدِفِينَ"
(الأنفال: ٩)

(حديث صحيح ، أخرجه مسلم وآخرون)

تمثل غزوة بدر في التاريخ الإسلامى لحظة فارقة بين الاستضعاف والقوة بين الذلة والعزة ، بين الوجود والهش المحاصر ، والوجود الراسخ الحر... غزوة بدر بداية المرحلة التى أخذ فيها الإسلام يفرض فيها ذاته وكيانه وحاضره ومستقبله على الخصوم والأعداء والمنافقين والمتريصين ... إذ إنها حققت لأول مرة انتصاراً عسكرياً ينجزه المسلمون فى الميدان ، مع اتساع الفارق بين قوتهم وقوة أعدائهم .. فقد كانوا يمثلون قوة صغيرة ضعيفة بالمقياس إلى قوة الأعداء التى تتلك تفوقاً كبيراً فى العدد والعدة أو الأفراد والسلاح ، وكانت نتيجة المعركة خسارة فادحة للأعداء

: إذ فقدوا ما يقرب من سبعين قتيلاً بينهم عدد لا بأس به من قياداتهم المؤثرة ؛ فى مقدمتهم أبو جهل ، العدو اللدود للإسلام . كما فقدوا سبعين مقاتلاً آخرين ، وقعوا فى أسر المسلمين ، ولم يفرج عنهم إلا بعد ظروف معينة عايشوا فيها قسوة الهزيمة ، ورأوا انتصار الإسلام ، وتفاعلوا مع المجتمع المسلم سلباً و إيجاباً من خلال القيم والسلوكيات التى تحرك بها المسلمون فى مرحلة القتال وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ..

لقد تناول القرآن الكريم قصة غزوة بدر فى سورة الأنفال ، و أشار إليها فى بعض السور الأخرى ، كما وردت أحاديث نبوية شريفة تتحدث عنها وتسردها وقائعها وأحداثها ، وفى هذا الحديث الشريف ، يقوم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - بسرد أحداث الغزوة من وجهة نظرة على لسان عبد الله بن عباس ، ولكن المحور الأساسى فى رواية عمر هو الإشارة إلى موضوع الأسرى المشركين الذين وقعوا فى قبضة المسلمين وهو موضوع اقتضى مشاورة بين النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، ونزل فيه الوحي ليعلم المسلمين كيفية التصرف فى مثل هذا الموضوع الخاص الذى تكتنفه ملبسات خاصة .

لقد وقعت غزوة بدر عند بئر على مشارف المدينة المنورة ، كان صاحبها يسمّى بدرًا ، وصار هذا الاسم علماً على هذه الغزوة التى جرت فى السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكان يوم الجمعة .

كان عدد المشركين المقاتلين ألف رجل ، فيهم كثير من الفرسان ، مسلحين بأفضل الأسلحة ، ومعهم كثير من المون والاسعدادات . كما كانوا ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً ، وكان تسليحهم محدوداً . ومعظمهم كان راجلاً . أى يسير على قدميه بلا خيل ولا ركاب ..

" اللهم أنزلي ما وعدتني ، اللهم أت ما وعدتني . اللهم

إن تهلك هذه العصاة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض "

الدعاء وسيلة من وسائل طلب النصرة من الله سبحانه جل وعلا ،

المسلم يلجأ إلى ربه لينصره ويعزده في ظل تفوق العدو وهيمته القتالية ، والنبى -

صلى الله عليه وسلم - يقدم القدوة للمسلمين كي يتضرعوا إلى الله ويطلبوا منه

العون والماندة والثبات في مواجهة عدوهم .. إن الدعاء صلاة ، والعبد أقرب ما

يكون إلى ربه وهو يصلى ويسجد ، يستجيب له ، ويمن عليه بأفضاله ونعمائه ، وقد

دعا النبى - صلى الله عليه وسلم ربه ، لينجز له وعده بالنصر أو الغنيمه . وكان

تضرع النبى - صلى الله عليه وسلم صادقا ومخلصا ومنطقيا :

اللهم إن تهلك هذه العصاة ، أى هذه الجماعة المسلمة ، أو جماعة

المسلمين أو أهل الإسلام ، لا تعبد في الأرض ، أى إن الرسول - صلى الله عليه وسلم

يطلب النصر من ربه ، حتى تستمر عبادته ، ويستمر ذكره في الأرض ، من خلال

المؤمنين به المطيعين له ، وإلا فإن هزيمتهم تعنى هزيمة الإسلام والقضاء عليه .. وقد

استجاب الله للنبى - صلى الله عليه وسلم - وأنجز وعده .

قصة غزوة بدر و الأسرى - ٢ -

قال ابن عباس : رضى الله عنهما : بينما رجل من المسلمين يومئذ (أى يوم بدر) يشقذ فى أثر رجل من المشركين أمامه . إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم . فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً ، فنظر إليه ، فإذا هو قد خطم أنفه ، وشق وجهه كضربة السوط ، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم فقال :

" صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة "

فقتلوا يومئذ سبعين و أسروا سبعين "

قال ابن عباس : فلما أسروا الأسارى ، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : " ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ " فقال أبو بكر - رضى الله عنه :

يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :- " ما ترى يا ابن الخطاب ؟ "

فقال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكنى أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم ، فتمكن علينا من عقيل فيضرب عنقه وتمكنى من فيلان - نسيبا لعمر - فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وصناديدها فهوئى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت "

حين رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الفارق الشاسع بين قوة المسلمين وقوة المشركين . و تفوق الآخرين ، ابتهل إلى ربه مناشداً وهاتفاً حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، أى كتفيه ، وكان يدعو ربه لينجز وعده للمسلمين . قام أبو بكر رضى الله عنه وأخذ رداءه - صلى الله عليه وسلم - وألقاه على كتفيه ، ووقف من ورائه قائلاً : يا نبي الله ، كذاك مناشدتك ربك ، أى كفاك مطالبة ربك ، فقد وعدك بإحدى الطائفتين : العير أى القافلة التى تسوقها قريش بزعامة أبي سفيان ، أو النفير أى مقاتلة جيش المشركين والانتصار عليه ، وسينجز الله وعده الذى وعدك به .. وقد تحقق هذا فعلاً بفضل الله وكان النصر على الجيش الذى جاء بعد الإمداد بالملائكة .

قال تعالى : "إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (الأنفال: ٩٠-٩١) و لا شك أن الدعاء الخالص لوجه الله سبحانه يجد القبول والإستجابة وهو ما رأيناه فى غزوة بدر ، حيث استجاب الله لدعاء نبيه - صلى الله عليه وسلم - وأنزل الملائكة يقاتلون مع المسلمين الذين كانوا أقلية ضعيفة . ولكنها أقلية مؤمنة أخذت بالأسباب ، و أعدت العدة التى تقدر عليها . وقاتلت بصبر و استماتة و طلباً للشهادة وهو ما جعل نتيجة المعركة على غير ما توقع الناس ، إذ كان المتوقع وفق الحسابات المرئية هو انتصار قريش المشركة ، الأكثر عدداً و عدّة ، ولكن النتيجة أن المسلمين الأقل عدداً و عدة هم الذين انتصروا ، وكان انتصارهم ساحقاً وداوياً إذا أسروا سبعين مقاتلاً من قريش ، و قتلوا سبعين آخرين منهم .

لقد تمثلت نصرة الله للمسلمين فى إمدادهم بالملائكة ، وفى قصة المشرك الذى خرّ مستلقياً أمام الفارس ما يشير إلى هذا الإمداد ، فقد سمع رجل من

المسلمين وهو يشتد في أن يرذل من المشركين ضربة سوط فوقه ، وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم ، وحيردم شراسم فرس الملك الذي كان يطلب منه الإقدام ، أى الكرّ على الأعداء . وسوف نجد أن المشرك الذي استلقى على الأرض أو انبطح عليها قد حطم أنفه . أى جرح أنفه أو صارت عليه علامة جرح . وشق وجهه كأنه أثر من ضربة السوط ، وحين يبلغ أنصارى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بذلك ، فيقول : " صدقت . ذلك من مدد السماء الثالثة " ...

أى إن ما جرى للمشرك ، هو نتيجة ما فعله الملك البنى أنزله الله من السماء الثالثة مع آخرين لمقاتلة المشركين ودعم المسلمين فى محنتهم التى يواجهون فيها قوة أكبر منهم وأعظم تسليحاً وإعداداً .

لقد كانت نتيجة المعركة مذهلة . نصر وأسرو ، ويبدو أن المسلمين آنذ لم يتوقعوا أن ينشأ لديهم وضع جديد غير مسبوق ، وهو أسر سبعين مشركاً من مقاتلى قريش ماذا يفعلون بهم ؟ أو كيف يتصرفون معهم ؟

وهنا نرى أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يلجأ إلى مشاورة المسلمين ، فليس لديه تشريع يهدى فى هذه المسألة . وكان أمر الأسرى فى هذا الزمان غير خاضع لقانون أو عرف . كان التصرف فى الأسرى خاضعاً لما يراه المنتصرون ، وهو ما فعلته الأمم المتحاربة وأهمها يومئذ الفرس والروم . لم تكن هناك قاعدة ثابتة أو نظام متفق عليه

كان هناك من يقتل الأسرى ، وكان هناك من يستعبيدهم وحولهم إلى عبيد يباعون ويشترون ، وكان هناك من يقايض بهم مع قومهم المهزومين ، أو يجعل لهم ثمناً يفتديهم أو يدفعه ذروهم ؛ وقادتهم من قومهم المهزومين ..لذا كانت المشاورة يعد غزوة بدر هى الطريق الأمثل لمواجهة أمر الأسرى المشركين .

قصة غزوة بدر و الأسرى - ٣ -

بعد أن استشار الرسول - صلى الله عليه وسلم - صاحبه أبا بكر وعمر في أمر الأسرى الذين أسرهم المسلمون في غزوة بدر، يقول عمر رضى الله عنه :
" فلما جئت من الغد ، جئت فإذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر قاعدين يبكيان .

قلت : يا رسول الله أخبرنى من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما ؟!
قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :-
" أبكى للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء . لقد عرض على عذابهم أو فى من هذه الشجرة "

شجرة قريب من نبي الله - صلى الله عليه وسلم - و أنزل الله عزوجل :
" مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُدَّ أَسْرَى حَتَّى يُثَخَّرَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾
لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَقَى لِمَسْكَمٍ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾
فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا"
(الأنفال: ٦٧-٦٨)

فأحل الله الغنيمة .

كان وجود سبعين أسيراً مشركاً فى قبضة المسلمين ، بعد غزوة بدر ، مسألة مهمة تحتاج إلى تصرف يعالجها ، فهؤلاء الأسرى كانوا يقاتلون المسلمين ، وجاءوا إلى بدر معتدين ، وبعضهم من قادة الشرك والعدوان ، ولذا طرح الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمرهم على المسلمين ، فالتصرف معهم ، لم يرد فيه وحى ، أو أمر من السماء .

وكان أبو بكر و عمر أبرز أصحاب الرأي والمشورة في المجتمع الإسلامي آنئذ . واستشارهما الرسول - صلى الله عليه وسلم . فرأى أبو بكر - رضى الله عنه - أن تؤخذ منهم فدية تكون قوة للمسلمين على الكفار ، وكانت أسباب رأيه تتلخص في كونهم أى الأسرى - أبناء العم والعشيرة ، أى أقارب للمسلمين ، وأن الفداء يمكن أن يكون طريقاً لهدايتهم إلى الإسلام ، فضلاً عن كون الفدية وسيلة من وسائل قوة المسلمين .

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه - فقد كان رأيه مخالفاً لرأى الصديق أبى بكر وكان يرى أنه لا بد من قتلهم ، وأن يقوم الصحابة بقتل الأسرى من روعس الكفر ولو كانوا من أقاربهم ، فيقتل على عقيلاً ، ويقتل هو - أى عمر - صهراً له .. وهكذا ، وحجته فى ذلك أن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، أى أشرف الكفار ، وهم كبار الكفرة و أشرارهم .

لم يأخذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - برأى عمر ، ولكنه أخذ برأى أبى بكر ' فهوى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قاله أبو بكر ، ولم يهو ما قلت ... ' ولا ريب أن علاقة النسب والقربى ، والأمل فى الهداية ، كانت من وراء موافقة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على رأى أبى بكر ، ولكن الوحي جاء موافقاً لرأى عمر وهو ما جعل النبى - صلى الله عليه وسلم - و أبى بكر - رضى الله عنه - يبكيان ، مما أثار تساؤل عمر عن سبب البكاء ..

لقد اتخذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - الموقف السليم ، وهو الشورى أو المشاورة أو طلب الرأى من أصحاب ، فيما عرض له من أمر الأسرى ، إذ لو كانت هناك قاعدة شرعية معروفة ، ما احتاج إلى المشاورة ، ولطبق هذه القاعدة تلقائياً ..

و يبدو - و الله أعلم - أن الحق سبحانه أراد أن يعلم المسلمين درساً فى كيفية التصرف عندما لا يوجد نص ، أو قاعدة شرعية ، إذ يتوجب عليهم أن يتشاوروا و يطرحوا الآراء المختلفة بأسانئدها وأسبابها ومسوغاتها ، وعليهم

بعدئذ أن يرجحوا ما يرونه موافقاً لصلحة المسلمين ، وقد وردت بعض الآيات التي تؤكد على الشورى مثل قوله تعالى لنبيه - صلى الله عليه وسلم :

"...وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ... (ال عمران ١٥٩)

وحين يتحدث عن صفات المؤمنين ، عد الشورى واحدة من صفاتهم قال تعالى : "...وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ" (الشورى ٣٨)

وهناك أحاديث ومأثورات تتحدث عن قيمة الشورى وأهميتها في حياة المسلمين

بيد أن المسألة بالنسبة للأسرى في غزوة بدر ، كانت أكبر من ذلك إذ إن القوم حين اعتدوا على المسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم ، وجاءوا لمحاربتهم ومقاتلتهم عند بدر كانوا يقصدون إلى إفنائهم قصداً ، وكانوا يسعون إلى القضاء على الإسلام قضاء مبرماً لولا نصر الله ، وإمداده المسلمين بالملائكة ، و نزلت

الآيات الكريمة توضح ذلك : "مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُتَّخِذَ فِي الْأَرْضِ ثَرْيُدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ"

(الأنفال ٦٧-٦٩)

لقد بكى النبي - صلى الله عليه وسلم و أوبكر رضى الله عنه ، خوفاً من عذاب الله ، وعرف أن قبول الغدية في هذه الحال ، والمسلمون لم يتمكنوا في الأرض بعد - هو إغراء للكافرين بالاستهانة بهم ومعاونة الكرة عليهم . وكان الواجب إنقاذهم بالجراح حتى لا يستطيعوا قتالاً في الأرض .. ولكن الحق سبحانه يقدر للمجاهدين جهودهم ويعفو عن الخطأ الذى وقعوا فيه ، ويحلل لهم الغنائم ، ويدعوهم إلى التقوى والتوبة فهو الغفور الرحيم .

لقد كانت غزوة بدر فى أسبائها وسياقها ونتائجها ، درساً مستمراً ينبغى على المسلمين فى كل زمان ومكان استيعابه والاستفادة منه .. فهو درس عظيم بكل المقاييس .

قصة إسلام صحابي جليل (1)

عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : بعثت بنو سعد ، ضمام بن ثعلبة وافدا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقدم عليه ، و أناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس فى أصحابه ، وكان ضمام رجلاً جلدأ أشعرنا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى أصحابه ، فقال : أياكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " أنا ابن عبد المطلب " .
قال : أمحمد ؟ قال : " نعم " .

قال : يا ابن عبد المطلب ، إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة ، فلا تجدن بها على فى نفسك .

قال : " لا أجد فى نفسى فسل عما بدا لك " .

قال : أنتشك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ،
آله بعثك رسولاً ؟

قال : " اللهم نعم " ، قال : فأنتشك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آله أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده ، ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال : " اللهم نعم " ..

حديث صحيح أخرجه أحمد و أبو داود وآخرون

تمثل قصص إسلام الصحابة عموماً نموذجاً للبحث عن الحقيقة والسعى إلى اكتشافها وفقاً لمعايير العقل والإخلاص والتدبير، ومن ورائها جميعاً توفيق الله تعالى وهدايته ، وبالإضافة إلى ذلك ، فهى تقدم دليلاً عملياً على عناية الإسلام بالعقل والتفكير ، فقد جعلهما مدخلاً إلى العقيدة والإيمان ، وهو ما يزد

على الذين يسيئون إلى الإسلام ويتفون عن شريعته احترام العقل والتفكير، وما أكثر الآيات الكريمة التي وردت في القرآن الكريم تحض على استخدام العقل والتفكير والتدبر والتأمل وفي الوقت ذاته تزرى بالتقليد والمقلدين، والذين يتبعون غيرهم دون تفكر أو تعقل والصحابي الجليل في هذه القصة " ضمام بن ثعلبة " من بنى سعد واحد من الذين دخلوا إلى ساحة الإسلام من خلال العقل والتفكير. أي أصبح مسلماً بعد اقتناع عقلي وفكري بصدق الرسالة والرسول .

إن القصة النبوية الشريفة تصف لنا ضمناً وصفاً خارجياً مباشراً ، كما تصفه لنا من الداخل وصفاً ضمناً عبر الحوار .

فهو من الخارج رجل جلد ، أي قوى البنية شديد البأس ، وهو أشعر ، أي غزير الشعر الذي يغطي أنحاء جسده ، وخاصة الأطراف وهذا ما جعله يعقص شعره أي يصفه في صفيرتين أو غديرتين ، وهذه طبيعة الناس في البادية في ذلك الزمان مما يدل على القوة والخشونة عموماً لمواجهة قسوة الصحراء أو البيئة التي تتطلب ذلك النوع من الرجال الذي يقدر على التكيف معها .

و سوف نرى من الحوار أن هناك طبيعة خشنة قوية ، تتلبس ذلك الرجل القادم من بنى سعد ليكتشف من هو محمد ؟ وما هو الدين الجديد الذي جاء به ؟ وهل هو حقيقي أم لا ؟

ولا يشك أن الرجل وقد بعثه بنو سعد ، فقد زودوه بطرف من تاريخ محمد ونسبه تلحظه في سؤاله الخشن : أيكم ابن عبد المطلب ؟

وعبد المطلب هو جد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان مشهوراً في الجاهلية وأرتبط اسمه بحادث أبرهة الأشرم الذي جاء مكة بأفياله غازياً يريد أن يهدم الكعبة وقد تصدى له عبد المطلب طالباً منه أن يترك ممتلكاته أما البيت فله رب يحميه ، وقد رد الله أبرهة على عقبه بعد أن أرسل عليه وعلى قومه طيراً

أبائيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول . إنأ عبد المطلب له شهرة داوية وله صيت ذائع ولذا رأينا ضمام بن ثعلبة ، لم يسمّ محمداً باسم أبيه عبد الله ، ولكنه نسبه إلى جدّه عبد المطلب الذى تعرف الجزيرة العربية سيرته . ولا ننسى أن عبد المطلب هو الذى روى محمداً وهو صغير بعد أن فقد والده عبد الله ، ومهما يكن من أمر ، فإن ضمام سأل عن ابن عبد المطلب . وأجاب النّبى - صلى الله عليه وسلم - دون غضاضة أو انفعال : أنا ابن عبد المطلب !

النّبى - صلى الله عليه وسلم - هو الداعية ، والداعية لا بد أن يصير ويحتمل ، حتى لو كان المدعو خشناً وفظاً فى كلامه وسؤاله ، وإلا ما استحق شرف الدعوة ، إن ضمام بن ثعلبة يعلن دون موارد أنه سيسأل ابن عبد المطلب ، وسيغظ عليه فى السؤال ، ولكنه يطلب منه أن لا يغضب عليه و ألا يحمل فى نفسه شيئاً منه ، ويجيبه الهادى البشير بصبر الداعية و أخلاق الدعوة :

" لا أجد فى نفسى فسل عما بدا لك " أى إنه يخبره أن نفسه صافية لا تعرف الغضب من أجل النفس ، ولكنها تحتمل فى سبيل الدعوة ..

وهنا نجد السؤال الأول من ضمام يتعلّق بصدق الرسالة والرسول .. أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك : الله بعثك إليه رسولاً ؟ فيجيبه النّبى صلى الله عليه وسلم - ببساط شديدة مؤكداً بعثته : اللهم نعم ، وسنرى الحوار يمتد ليتأكد ضمام من صدق الرسالة والرسول كى يدخل الإسلام .

قصة إسلام صحابي جليل (٢)

كان ضمام بن ثعلبة فيما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قد قدم على النبي - صلى الله عليه وسلم - وأغظ في سؤاله أو أسئله التي توالى على النحو التالى : " قال : ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة ، فريضة ، الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها ، ينشده عند كل فريضة منها ، كما ينشده فى التي قبلها حتى إذا فرغ قال : فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وساؤدى هذه الفرائض ، وأجتنب ما نهيتنى عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص ، ثم انصرف إلى بعيه راجعاً .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن صدق ذوالعقيصتين دخل الجنة " قال : فأتى بعيه فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى ! قالوا : مه يا ضمام ، اتق البرص اتق الجذام اتق الجنون !! قال : ويلكم إنهما والله لا يضران ، ولا ينفعان ، إن الله قد بعث رسولاً وأنزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتم من عنده بما أمركم به وما نهاكم عنه . قال : فوالله ما أمسى من ذلك اليوم فى حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلماً . قال ابن عباس : فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة .

.....

يبدو ضمام بن ثعلبة فى هذه القصة يسعى من خلال الإغلاظ فى القول للرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى اكتشاف الحقيقة المقتعة . فقد جاء من بنى سعد ليعلم هل هذا الدين الجديد حق أم باطل ، ولأنه رجل لا يهوى تضييع وقته سدى أو فيما لا يفيد ، فهو يريد أن يصل إلى الصواب فى هذا الأمر الذى أثار حركة

فكرية عارمة فى أنحاء الجزيرة العربية كلها ، ما بين مؤيد ومعارض ، بين من يريد الحفاظ على التقاليد و عبادة الأصنام ، ومن يريد التعرف على الحقيقة و اتباعها مهما كان الثمن ..ومن ثم ، فإن ضمام بن ثعلبة يغلظ فى أسئلته و يخشن ، و يقدم لهذه الأسئلة تقديماً يجعل المسؤل أيا كان لا يجيب بغير الحقيقة ، فهو يبدأ السؤال بمناشده المسؤل بالله " أنشدك الله إلهك و إله من كان من قبلك و إله من هو كائن بعدك .. " ثم يطرح سؤاله عن البعثة و التوحيد و خلع عبادة الأصنام ، و فرائض الإسلام و الشرائع كلها .. و الرسول - صلى الله عليه وسلم - يجيبه بعبارة مؤكدة و قاطعة : " اللهم نعم " ..

ومن الأسئلة و الإجابات التى تتدرج فى تصاعد شائق يشد المستمع أو القائمة إلى القصة النبوية الشريفة ، نجد " ضاماما " يقنع بالإجابات ، و يرتب عليها قراره التاريخى بإعلان الشهادتين و الدخول إلى ساحة الإسلام الخضراء الرحبة .. و يعلن أمام النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه سيؤدى الفرائض التى فرضها الإسلام و الشرع الحنيف و سيجتنب ما نهى عنه ، ولن يزيد ولن ينقص . ثم ينصرف إلى بعيره راجعا إلى قومه .

وهنا تكون البشارة النبوية المشروطة حيث يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم " إن صدق ذو العقصيتين دخل الجنة " إى إن صدق ضمام بن ثعلبة صاحب الضفيرتين أو الغديرتين فى إسلامه فهو من أهل الجنة .
هذه البشارة المشروطة كأنها حقيقة ، فقد رجع ضمام إلى قومه ، وحين وصل عندهم اجتمعوا به ، و بدأت تسقين ملامح صدقه و إخلاصه للدين الجديد ، و لقد كان أول من قاله لهم : " بنسبت اللات و العزى ! "

إنها صدمة فاحشة لقومه الذين يعبدون اللات والعزى ويقدمونهما ،
وها هو ضمام يعود من لدن محمد - صلى الله عليه وسلم - فيذمّ آلهتهم وفي
مقدمتها " اللات والعزى " مما يدفعهم إلى نهره ومطالبتة بالسكوت ، وتخويفه من
الإصابة بالبرص والجذام والجنون !

" مه يا ضمام ، اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون !!"

ولكن الرجل العاقل الذى اقتنع بالإسلام وآمن به يردّ عليهم رداً عقلياً
ومنطقياً غاية فى البساطة، بعد أن ينذرهم بالويل والهلاك إذا استمروا على حالهم .
" ويلكم ، إنهما والله لا يضران ، ولا ينفعان . إن الله قد بعث رسولاً ،
واتزل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتمكم من عنده بما أمركم به ، وما نهاكم عنه .

لقد ترتب على هذا الإقناع العقلى المنطقى أن قوم ضمام ، رجالاً
ونساءً أمسوا مسلمين لله وحده ، تاركين عبادة اللات والعزى ، داخلين إلى ساحة
الإسلام الخضراء الرحمة كما سبق وأن دخلها ضمام .

إن قصة إسلام ضمام بن ثعلبة تقدم لنا من خلال حوارهِ مع
الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قومه من بعد ، نموذجاً للعقل الإنسانى حين يتجرد
من الغرض والهوى ويسعى إلى معرفة الحقيقة والصواب ، مهما كلفه ذلك من
مشقات والتزامات وهو ما يؤكد على احترام الإسلام للعقل والتفكير ، ويقدم
برهاناً على ذلك أمام الخصوم وأعداء الإسلام الذين يصمونهُ بالخرافة والأسطورة..
إن الإسلام دين الفطرة السليمة التى تؤكد على ملكية الإنسان المسلم لأجمل نعمة
من نعم الله ؛ وهى العقل السليم الذى يقود صاحبه إلى آفاق الحرية والعمل
والإنتاج والقوة والإبداع وقبل ذلك الإيمان والتوحيد .

زجة مباركة

عن عائشة . رضی اللہ عنہا . قالت : لما قسم رسول اللہ - صلى اللہ علیہ وسلم سبايا بنی المصطلق . وقعت جویریة بنت الحارث فی السهم لثابت بن قیس . أو لابن عم له . فکاتبته علی نفسها . وكانت امرأة حلوة ملاحه لا یراها أحد إلا أخذت بنفسه . فأتت رسول اللہ - صلى اللہ علیہ وسلم - تستعینہ فی کتابتها .

قالت عائشة : فواللہ ما هو إلا أن رأيتها علی باب حجرتی فکرهتها . وعرفت أنه سیرى منها - صلى اللہ علیہ وسلم - ما رأیت فدخلت علیہ . فقالت :

یا رسول اللہ . أنا جویریة بنت الحارث . سید قومه . وقد أصابنی من البلاء ما لم یخف علیک فوقعت فی السهم لثابت بن قیس بن الشماس أو لابن عم له . فکاتبته علی نفسی . فجئتک أستعینک علی کتابتی . قال : " فهل لك خیر من ذلك ؟ " .

قال : " أقضى عنک کتابتک و أنزوجک " . قالت : نعم : یا رسول اللہ .

قال : " قد فعلت " .

قالت : و خرج الخبر إلى الناس أن رسول اللہ - صلى اللہ علیہ وسلم - قد

تزوج جویریة ابنة الحارث .

فقال الناس : أظہر رسول اللہ - صلى اللہ علیہ وسلم - و أرسلوا ما بأيديهم .

قالت : فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنی المصطلق . فما

أعلم امرأة كانت أعظم علی قومها بركة منها .

حديث صحيح . أخرجه أحمد و تabin سعدون و أبو داود و غیرهم .

.....

هذه قصة مهمة لأن لها أبعاداً عديدة . و هي فی الوقت نفسه تقدم لنا

أحداثها من خلال تشويق واضح . تصنعه الغيرة . والأسر . والتسامح . وتأتى فی

سياق انتصار الإسلام المتصاعد علی أعدائه وإخضاع خصومه لمنطقه العادل .

وتشريعه الإنساني .

لقد انتصر المسلمون في غزوة بنى المصطلق على محاربيهم ، و أخضعوهم ،
 وأمّنوا شرهم ، وكما هي طبيعة الحرب في ذلك الزمان ، كان الغالب يستحوذ على
 المغلوب ويغنم ممتلكاته و أهله .. وبعد أن تضع الحرب أوزارها يبدأ المنتصرون في
 تقسيم الغنائم وفقاً للتشريع السائد ، وكانت سورة الأنفال ، قد أوضحت تقسيم
 الغنائم عند المسلمين في قوله تعالى : "يسالونك عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ
 لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"
 (الأنفال: ١٠)

و قوله تعالى في السورة ذاتها :

"وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ
 وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ
 بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ
 عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"
 (الأنفال: ٤١)

وعند تقسيم سبايا بنى المصطلق ، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم
 لثابت بن قيس أو ابن عم له ، أي صارت ملكاً له بوصفها أمة أو رقيقاً يتصرف
 فيها كيف شاء وفقاً لنظام الرق السائد آنذ في العالم كله .. ولكن الإسلام وضع
 نظاماً يتيح للإرقاء أو العبيد أن يحرروا أنفسهم وذلك من خلال " المكاتبه " أي
 الاتفاق بين العبد وسيدها على دفع مبلغ معلوم أو القيام بعمل معين إلى أجل
 معين ، تخليراً للحرية والانتعاق من الأسر.

و قد كتبت " جويرية بنت الحارث " سيدها ، لتنال حريتها وعتقها
 وقد ذهبت إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - عرضاً أفضل ، وهو الزواج منها مقابل قضاء ما
 التزمت به لسيدها . فقبلت جويرية هذا العرض ووافقت على الزواج ، الذي كان
 سبباً في عتق مائة أهل بيت من بنى المصطلق .

كانت هذه الزيجة المباركة خيراً وبركة على أهل جويرية ، حيث تم فك أسرهم وتحريرهم ، وما عُرفت امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها .
و سوف نرى أن حركة الأحداث فى القصة تتصاعد لتكشف عن طبيعة النفس البشرية والعلاقات التى تحكم الإنسان بأخيه الإنسان سواء كانت علاقات فطرية أم غيرها .

هاجُن نجد عائشة رضى الله عنها ؛ تستشعر بطبيعة الأنثى غير واضحة من أنثى أخرى وصفتها بأنها " امرأة حلوة ملاحه لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه " ، أى إن جمالها يؤثر على من يراها ، وحين علمت أنها أى هذه الأنثى الحلوة " جويرية " تريد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كرهتها ، وعرفت أنه سيرى منها ما رأت . والغيرة الأنثوية أمر طبيعى بين النساء ، وخاصة إذا كانت الأخرى ستشاركها الرجل الذى تحبه ، ولكن الغيرة هنا لا تتعدى الطبيعة الفطرية إلى التعبير السلوكى الذى يتخذ أشكالاً غير طبيعية تصيب الآخرين بالأنى والألم .
ولا شك أن زواج الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان لغاية أخرى تتجاوز مجرد الزواج والبناء بامرأة من النساء ، وهذه الغاية تنضج من خلال القصة التى تشير إلى تأليف المجتمع الإسلامى وترابطه ، فزواجه - صلى الله عليه وسلم - من جويرية انعكس على أهلها الذين أطلق سراهم وصاروا أحراراً يخدمون المجتمع الإسلامى ويعززون قدرته ويدافعون عنه ، بعد أن كانوا خصوماً له وأعداء .
و نلاحظ أن هذا الزواج انعكس أيضاً على المسلمين الذين شاركوا فى الفرح وأرسلوا ما بأيديهم أى الهدايا تعبيراً عن سرورهم بما تم فى بيت النبوة ، مما يعنى أن نفوسهم خلت من الغضاضة تجاه بنى المصطلق الذين صاروا إخواناً لهم فى الدين .

لقد كانت " جويرية " امرأة ذكية بحق أراد الله لها الخير كل الخير - حين قبلت عرض الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وتزوجته ، فأكرمها وأكرم قومها .. هذا وبالله التوفيق .

إيمان الفطرة - ١

عن محمود بن لبيد ، رضى الله عنه ، قال : لما قدم أبو الحيسر أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج ، سمع بهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاتاهم فجلس إليهم ، فقال لهم :

" هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ " فقالوا له : وما ذاك ؟

قال : " أنا رسول الله ، بعثنى الله إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب " .

قال : ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، قال : فقال إياس بن معاذ ،

وكان غلاماً حدثاً: أى قوم هذا و الله خير مما جئتم له

حديث حسن ، أخرجه أحمد و البخارى و الحاكم وغيرهم

.....

هذه القصة النبوية تقدم لنا صورة من الحياة فى الجاهلية قبل أن يدخل الناس فى دين الله أفواجا . فقد كانت القوة هى المهيمن أو المسيطر على العقلية العربية السائدة آنئذ . ومن لا يملك القوة فإنه لا يستطيع أن يعيش عزيزاً مكرماً .. بل يبقى تحت رحمة الآخرين ، مهدداً ذليلاً ، يتعرض للمهانة كلما سئحت الفرصة لغيره .. هذا هو منطلق الواقع الصحراوى الضشن الذى لا تحكمه قوانين ولا تحميه حكومة رأسخة ..

لقد ذهب بنو عبد الأشهل بقيادة أبو الحيسر أنس بن رافع من المدينة ، وكانت تسمى يثرب ، إلى مكة كى يتحالفوا مع قريش على قومهم من الخزرج ، والحلف يعنى النصره والموازرة و القتال إلى جانب الحليف ضد خصومه و أعدائه . ومجىء بنى عبد الأشهل من مسافات بعيدة لطلب التحالف من قريش ؛ يعنى أن

القوم كانوا فى وضع حرج للغاية ضد خصومهم ، فلو كان الأمر محدوداً لتحالفوا مع أقرب القبائل إليهم حول المدينة أو على مسافة قصيرة منها ، ولكنهم قطعوا مئات الأميال بحثاً عن حليف يحقق لهم الفوز والمساندة أمام العدو أو الخصم .

ولا شك أن حياة صعبة مثل هذه الحياة التى يحيها بنو عبد الأشهل ، وغيرهم من القبائل والعشائر والبطون العربية قبل الإسلام ، تكشف لنا عن نعمة كبيرة أسبغها الله سبحانه وتعالى على العرب الذين خلوا فى دين الله أفواجاً ، فتحقق لهم الأمن والرخاء ، واستظلوا بنعمة الأخوة فى الدين ، وهى الأخوة التى حملت العصبية الجاهلية ، وجعلت العرب المسلمين يحظون بنظام إنسانى رائع يقوم على الأخوة والمساواة والعدل ، وتراجعت فكرة " الهيمنة للقوى " أو " السيطرة للغالب " لتحل محلها قيم أخرى تحض على الخير والمعروف والعفو والتسامح .. فلم تعد القبائل فى حاجة كى تعيش بكرامتها إلى التحالف مع قبائل أخرى تسندها وتعزدها .. وصار ضميرها الداخلى هو الذى يحركها بمنهج الإسلام ونظامه وتشريعه ، فلا يبغى أحد على أحد ، ولا يجور فريق على فريق .. لقد انتقل المجتمع إلى وضع آخر فيه حضارة وإنسانية وتناغم شامل ، وينطلق من مفاهيم الإسلام وتشريعاته ، بوصفه كتلة واحدة لا قبائل متناحرة ..

سمع الرسول - صلى الله عليه وسلم - بوفاة بنى عبد الأشهل القادمين من يثرب للتحالف مع قريش على قومهم ، وعرف أنهم آتون استعداداً لحرب قد تاكل الأخضر واليابس ، ولكنها بمفهومها تحفظ عرينهم وتبقى على شوكتهم ، فقام بواجبه الدعوى مباشرة ، وذهب إليهم وجلس معهم ، وسألهم : " هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ "

أى إنه عرض عليهم أمراً هو أفضل وأحسن لهم وأقل تكلفة مما جاءوا من أجله ؛ لأنه سيوفر لهم الأمان والعزة والكرامة . وقد استفسروا منه – صلى الله عليه وسلم قائلين : وما ذاك ؟ أى ما هو الأمر الذى تعده خيراً مما جئنا من أجله ؟ فحدثهم عن بعثته صلى الله عليه وسلم ودعوته إلى التوحيد ، ونزول القرآن عليه .

لقد عرض الرسول الكريم أسس الرسالة ، وعرفهم بنفسه بوصفه رسولاً ونبياً " أنا رسول الله ، بعثنى الله إلى العباد ، أذعوهم إلى أن يعبدوا الله ، ولا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب " ، وبالضرورة لابد أن تبدأ الدعوة أو أمر الدعوة بقضية العقيدة أو الإيمان ، فالتوحيد هو أساس العقيدة والإيمان ، والغرب على ما نعلم فى ذلك الزمان كانوا يعبدون الأصنام والأوثان ، ويشركونها بالله ، ويقدمون إليها القرابين بوصفها تضر وتنفع من منظورهم ، ولكن الدعوة إلى التوحيد تغير كل ذلك ، وتحدث إنقلاباً فى العقلية العربية ومن تداعيات هذا الإنقلاب تغيير النظرة إلى الآخرين والخصوم ، وتحوّل السعى إلى التحالف لمقابلة الخرج من جانب بنى عبد الأشهل إلى شىء آخر .

إن نشرح الإسلام من جانب الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتلاوة القرآن الكريم ، على وفد بنى عبد الأشهل فتح فى عقولهم آفاقاً جديدة ، وكانت الاستجابة الفطرية للإسلام من جانب هذا الغلام المسمى " إياس بن معاذ " الذى خاطب قومه بتلقائية فطرية .

" هذا والله خير مما جئتم به " ! فماذا جرى لهذا الغلام ؟

"إيمان الفطرة" - ٢

حين عرض النبي - صلى الله عليه وسلم - الإسلام على وفد بنى عبد الأشهل الذين قدموا مكة للتحايل مع قريش على قومهم مع الخزرج ، قال إياس بن معاذ : يا قوم ؛ هذا والله خير مما جئتم له .

قال راوي الحديث : فأخذ أبو الحيسر بن رافع حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك . فلعمري لقد جئنا لغير هذا : قال : فصمت إياس ، وقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بُعثت بين الأوس والخزرج .

قال ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك .

قال محمود بن لبيد : فأخبرني من حضره من قومي عند موته ، أنهم لم يزالوا يسمعون بهلل الله تعالى ، ويكبره ، ويحمده ، ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً . لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس . حين سمع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما سمع .

.....

لقد دفعت الفطرة التقية السليمة الغلام الحدث ؛ إياس بن معاذ إلى الإيمان مباشرة ، عقب سماعه حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من بيان لمعنى الإسلام والتوحيد ، وقراءة آيات من القرآن الكريم .. لقد دخل الحديث إلى قلب الفتى التقي فأمن من فوره . وهتف بقومه : " هذا والله خير مما جئتم له " .

إذا كان القوم قد جاءوا إلى مكة لما يحفظ لهم أمر الدنيا ، فالإسلام يحفظ لهم أمر الدنيا والآخرة جميعاً ، و بطريقة أفضل وأحسن مما جاءوا من أجله .

بيد إن إسلام الفتى أو صيحته التي هتف بها في قومه ، لم تعجب قومه أو كبارهم . فقد ألقى أبو الحيسر أنس بن رافع التراب في وجه الفتى ، وقال : دعنا منك لقد جئنا لغير هذا .

و هنا نكتشف مسألتين مهمتين الأولى : هى الاستهانة بصغار السن عموماً وعدم الاكتراث أو الاهتمام بأرائهم وأفكارهم ، والأخرى ؛ هى التعصب للقديم والسائد دون تفكير فى صوابه أو خطئه ..

إن الاستهانة بالصغار مسألة غير مقبولة ، ولكنها قائمة فى المجتمعات المتخلفة التى تقيس الأمور بغير مقاييسها الحقيقية الدقيقة . هناك من يرى أن صغير السن أو الطفل لا قيمة لأرائه أو أفكاره . و أن القيمة كل القيمة للكبار والعجائز ، وهذا ليس صحيحاً على إطلاقه ، فالصغير أو الطفل إذا أحسنت تربيته كانت آراؤه صائبة فى الغالب ، و أفكاره جيدة فى معظم الأحيان ، حتى لو تعلق الأمر بقضية خطيرة مثل قضية العقيدة .

لقد أسلم على بن أبى طالب - رضى الله عنه - وهو صبي لما يبلغ الحلم بعد؛ وكانت آراؤه ومواقفه منذ صباه من أفضل الآراء والمواقف ، فقد كانت يتمتع بذاكرة قوية وتفكير مرتب ووعى مرهف ، وهو ما جعل الصحابة - رضوان الله عليهم - يستفتونه فيما بعد فى أصعب المسائل الفقهية وأعقدها ، ويجدون عنده الفتوى الصائبة والرأى السديد .

إن الاهتمام بالطفل بصفة عامة وبأفكاره - أياً كانت - أمر مهم ، لأن هذا الاهتمام يقوده و يوجهه إلى الطريق المستقيم والفكر الصواب والعمل الخير إن شاء الله .

و يروى التاريخ الإسلامى حكايات عديدة كان فيها صغار السن أكثر توفيقاً وأحكم رأياً من الكبار ، نظراً لما يمتازون به من صفاء الفطرة ونقاء السريرة، فضلاً عن خصوية العقل .

و الفتى إياس بن معاذ ، وإن كان أصغر تومه بنى عبد الأشهل ، إلا إنه سبقهم بفطرته وطبيعته إلى الرأى السليم والإيمان الصحيح .

أما التعصب للقديم والسائد دون وعى أو تبصر، فهو خلة ذميمة أشار إليها القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، ووصف أصحابها بأنهم قوم لا يعقلون أى لا يستخدمون عقولهم فى التفكير والتدبر والتأمل واتخاذ القرار الملائم .

من ذلك على سبيل المثال قوله تعالى :

«وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ قُلْ أُولَئِكَ جِئْتُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءِابَاءُكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٥﴾ (الزخرف: ٢٤-٢٥)

و قد قدمت السورة لهاتين الآيتين و غيرها مما ورد فى سياقها بقوله تعالى : «حم ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ (الزخرف: ١-٣)

إن طلب تحريك العقل هنا ضرورة لفهم ما يعرض وما يطرح من قضايا و أمور تخص العقيدة أو الإيمان أو غيرها . ولكن النظرة القائمة على التعصب دون تفكير تحجب عن أصحابها الحقيقة والخير ، وهو ما نراه الآن فى بعض المجالات . حيث يعتقد أصحابها وخاصة من دعاة التغريب والتبعية أنهم على صواب ، وأنهم يمتلكون الحقيقة المطلقة .

إن أبا الحيسر أنس بن رافع لم يفكر حين نطق إياس بن معاذ بالإيمان ، ورمى فى وجهه بالتراب . وقال متغطرساً : دعنا منك لقد جئنا لغير هذا لم يستفد أبو الحيسر بدعوة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم ، ولكن الفتى الصالح كتم إيمانه و أصر عليه وعرف من حضروا وفاته أنه كان يهمل الله تعالى ، ويكبره ، ويحمده ، ويسبحه حتى مات مسلماً ، و تأكد هؤلاء أنه أسلم منذ كان مع قومه بنى عبد الأشهل فى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم - ووعى ما قاله وتأثر به ، وإن كان لم يستطع أن يواجه زعيم قومه أبا الحيسر أنس بن رافع ، أو يقف فى طريقه لحدائثة سنة .

أول من صلى إلى الكعبة - 1

يروى كعب بن مالك - رضى الله عنه - فيقول : خرجنا فى حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا ، ومعنا البراء بن معرور سيدنا وكبيرنا ، فلما وجهنا لسفرنا وخرجنا من المدينة . قال البراء لنا : يا هؤلاء إني قد رأيت رأياً ، وو الله ما أدرى أتوافقونى عليه أم لا ؟ فقلنا : وما ذاك ؟ قال : رأيت ألا أدع هذه البنية منى بظهر - يعنى الكعبة - و أن أصلى إليها . فقلنا : والله ما بلغنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم - يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه .
فقال : إني لمصل إليها . فقلنا له : لكننا لا نفعل .

فكنا إذا حضرت الصلاة صلينا إلى الشام ، وصلى هو إلى الكعبة ، حتى قدمنا مكة .

قال : وقد كنا عبنا عليه ما صنع ، وأبى إلا الإقامة على ذلك ، فلما قدمنا إلى مكة قال لى :

- يا ابن أخى . انطلق بنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أساله عما صنعت فى سفرى هذا ، فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من خلافكم إياى فيه
حديث حسن ، أخرجه أحمد والطبرانى والطبرى وغيرهم .

.....

تمثل هذه القصة لوناً من ألوان الحياة التى عاشها المسلمون الأوائل ، وكان التشريع الإسلامى لما يكتمل بعد ، فيحاول بعضهم إنطلاقاً من عواطفه ومشاعره تجاه بعض الأماكن أو الأفكار أن يجتهد فى أمور شرعية وفقاً لهذه العواطف والمشاعر ، دون دليل حاسم أو فتوى تبيح فعله .

و قصة الحديث حكى بضمير المتكلم خروج وفد من مسلمى المدينة المنورة فى طريقهم إلى مكة المكرمة بقيادة " البراء بن معرور " سيد القوم وكبيرهم. وبينما هم فى الطريق إذا بالبراء بن معرور - رضى الله عنه - أن يصلّى نحو الكعبة، فهو لا يريد أن تكون بظهره ، أى خلفه .. كأنه يعزّ عليه أن يصلّى فى اتجاه آخر، لأن الكعبة أو البُنية كما سماها ينبغى ألا يدعها بظهر منه ، أى يتركها فى خلفه ويتجه إلى غيرها .

وواضح أن هذه القصة جرت قبل تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة وكان لهذا التغيير صداه فى الواقع الإسلامى عند حدوثه ، فقد كانت عواطف المسلمين المهاجرين وفى مقدمتهم النبى - صلى الله عليه وسلم - تحمل حباً جارفاً لمكة المكرمة التى أخرجوا منها بغير حق ، وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - يخاطبها بوصفها أحب بلاد الله إليه .

و قد نزلت الآية الكريمة لتحقيق أمله - صلى الله عليه وسلم - بالاتجاه فى الصلاة نحوها أو نحو الكعبة تحديداً .

قال تعالى : "قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ" (البقرة: ١٤٤)

إذاً هى القبلة التى يرضاها محمد - صلى الله عليه وسلم - ويرضاها المسلمون المهاجرون معه الذين يتوقون إلى التوجه نحوها ، وكذلك البراء بن معرور مع أنه من أهل المدينة المنورة .

وفى مجال عرض الرأى الذى ارتآه البراء بن معرور ، فإن الوفد المرافق له لم يؤيده ولم يتفق معه فيما ذهب إليه ، وقالوا له - والله ما بلغنا أن نبينا - صلى الله عليه وسلم يصلى إلا إلى الشام ، وما نريد أن نخالفه . وهم يقصدون بالصلاة إلى الشام ، الصلاة نحو بيت المقدس فى فلسطين التى نسميها الآن بالقدس ، وفلسطين جزء من الشام .

و نلاحظ هنا أن الوفد المرافق للبراء بن معرور ، كان ملتزماً بما سمعه ويسمعه من النبى - صلى الله عليه وسلم - ولا يتجاوزُه إلى اجتهاد شخصى أو رأى ذاتى لأن قضية الدين ليست خاضعة للرأى أو الاجتهاد ، خاصة فيما يتعلق بأمور العبادة التوقيفية أو التى يفصل فيها الوحي . لذا فإن قول الوفد للبراء " وما نريد أن نخالفه " يعنى التزامهم التام بمنهج الرسول الكريم وعدم خروجهم عليه .

ظل البراء فى جانب و الوفد فى جانب . هو يصلى إلى الكعبة وهم يصلون إلى بيت المقدس ، ومع أنهم عابوا رأيه واستهجنوا مآقفه ، إلا إنه ظل يصلى إلى الكعبة حتى وصلوا جميعاً إلى مكة .

وقال البراء لكعب بن مالك - رضى الله عنهما - يا ابن أختى انطلق بنا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا - يقصد صلاته إلى الكعبة - فإنه والله لقد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من خلافكم إيلى فيه .

كأن البراء استشعر أنه ارتكب إثمًا ، أو استشعر حرجا بما فعله ، فكان لابد أن يعود إلى المرجح الذى يحسم كل خلاف ويقضى بالحكم الصائب .

و العودة إلى المرجعية الإسلامية منهج إسلامى ناضج ، يوجه إلى الصواب ويقضى على كل خلاف ، وقد أشار القرآن الكريم إلى أن أى خلاف

ينشب بين المسلمين فيجب رده إلى هذه المرجعية التي تفصل في كل شيء ؛ صغيراً
أو كبيراً .

قال تعالى : "يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن
كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (النساء : ٥٩)
وقال تعالى :

"وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى
الرَّسُولِ وَالِىَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا" (النساء : ٨٣)
وقال تعالى :

"وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ" (الشورى : ١٠)

المرجعية إذاً هي الله ورسوله ، وهي المرجعية التي راح البراء بن معرود
يحتكم إليها بحثاً عن الصواب .

أول من صلى إلى الكعبة - ٢

لما شعر البراء بن معرور بالخرج مما فعله ، ومن مخالفته للوفد المرافق له بالصلاة نحو الكعبة ، وهم يصلون نحو الشام ، طلب من كعب بن مالك رضى الله عنه أن يذهبا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم .

فخرجنا نسال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكنا لا نعرفه ، ولم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلاً من أهل مكة ، فسألناه عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا . قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ قلنا : نعم .

قال : وقد كنا نعرف العباس ، كان لا يزال يقدم علينا تاجراً .

قال : فإذا دخلتم المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس ، قال : فدخلنا المسجد فإذا العباس - رضى الله عنه - جالس ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس معه فسلمنا ثم جلسنا إليه فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للعباس : " هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ " .

قال : نعم . هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك .

قال : فوالله ما أنسى قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - " الشاعري ؟ " .

قال : نعم ، فقال البراء بن معرور : يا نبي الله ، إني خرجت من سفري هذا وقد هداني الله للإسلام - فرأيت ألا أجعل هذه البنية منى بطهر فصليت إليها وقد خالفني أصحابي في ذلك .

حتى وقع في نفسي من ذلك شيء . فماذا ترى يا رسول الله ؟

قال : " قد كنت على قبلة ، لو صيرت عليها " .

فرجع البراء إلى قبلة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصلى معنا إلى الشام .

.....

كان إحساس البراء بن معرور بشيء في نفسه ، وراء ذهابه مع كعب بن مالك إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بوصفه المرجعية التي يتبغى الاحتكام

إليها ، ومعرفة الصواب من الخطأ فى حضورها ، فراح مع كعب يسألان - صلى الله عليه وسلم - وتلاحظ هنا أن بعض القوم فى يثرب قد سمعوا عنه ولم يروه ، وأسلموا بناء على ما وصل إليهم من أصول الدين ومفاهيمه ، فهما مثلاً يسألان رجلاً من أهل مكة كعادة الغرباء حين ينزلون قرية أو مدينة يريدون بعض أهلها فيسألون من يقابلهم فى الطريق ، ويتصوّر الرجل أن معرفتهما به ستسهل مهمتهما فى الوصول إليه ، فيسألهما : أتعرفانه ؟ ولكنهما لا يعرفانه وإن كانا يعرفان عمه العباس بن عبد المطلب بحكم أنه كان تاجراً يتردد عليهم فى المدينة وهذه المعرفة سهلت عليهم الوصول إلى الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - لأنه كان يجلس بجوار عمه كما أخبرهم الرجل الذى سألاه عنه .

و نكتشف من حوادث القصة أن المسجد ، والمقصود به هنا الكعبة أو البيت الحرام ، له دور كبير فى حياة الإسلام والمسلمين ، فهو مقر الرسول - صلى الله عليه وسلم وهو بالتالى مصدر الإسلام بعقيدته وتشريعاته ، وإليه يأتى الناس من كل مكان ، ليقابلوا نبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - ويتعرفوا على الدعوة والداعية .

وسنجد أن المسجد - بعد الهجرة - يتطور دوره ليكون شبيها بمقر الحكم للدولة الإسلامية الجديدة ، ومجلساً للشورى ، ومكاناً لأهل الحل والعقد ، ومركزاً لاستقبال السفراء والوفود ، ومنطلقاً لقرار الحرب وتوقيع اتفاقيات السلم والهدنة.. و هاهو البراء ومعه كعب يصلان إلى المسجد ، ويجلسان إلى العباس ويجواره النبي - صلى الله عليه وسلم - الذى يسأل عمه عنهما : " هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟ "

نلاحظ فى سؤاله - صلى الله عليه وسلم - لعمه العباس نموذجاً للأدب الرفيع فى المخاطبة والسؤال - فهو لا يسأله مستخدماً اسمه المجرد ، بل يستخدم الكنية " يا أبا الفضل " ، وما زال استخدام الكنية حتى اليوم فى البلاد العربية - أو كثير منها تعبيراً عن الاحترام والتوقير والقرب النفسى من المخاطب .

لقد أجاب العباس ، و عرّف بالرجلين تعريفاً يتجاوز الشخصيين إلى مكانتهما . فهذا البراء سيد قومه ، و كعب بن مالك . و يعقب الرسول - صلى الله عليه وسلم على إجابة عمه العباس حين ذكر كعباً بقوله : " الشاعر ؟ " وهذا التعقيب أو تلك الصفة التي سأل عنها الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم ينسها كعب بن مالك .

وقد أقسم على ذلك . و صفة الشاعر بالنسبة للشعراء أعلى من كل الصفات الدنيوية الأخرى ، و سنجد فيما بعد أن كعباً الشاعر سيكون له دور عظيم في المناقحة عن الإسلام و المسلمين بشعره ، و سيكون مدفعية ثقيلة تدك معازل الكفر بأبيات الشعرا المؤثرة مع عبد الله بن رواحة و حسان بن ثابت رضى الله عن الجميع .

بعد التعارف يعرض البراء بن معرور موضوعه أو مشكلته ، و يقول : فرأيت ألا أجعل هذه البنية - أي الكعبة - منى بظهر فصليت إليها ، و قد خالفني أصحابي في ذلك ، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء ، فماذا ترى يا رسول الله ؟
الرجل يعترف بما حدث اعترافاً دقيقاً ، و يطلب الرأي من الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنه هو المرجعية التي يحتكم إليها المختلفون . ولأن المسألة مرتبطة بالوحي الذي لم يغيرها ، فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقول له :
" قد كنت على قبلة لو صيرت عليها " . أي إنه بطريقة ذكية وبارعة ينبهه إلى خطئه و صواب رفاقه ، و يخبره أن الصلاة إلى الشام هي التشريع الصواب الذي كان ينبغي أن يتبعه . فيعدل البراء عن رأيه حتى تتغير القبلة إلى مكة فيما بعد الهجرة بأمر إلهي يستجيب لعواطف النبي - صلى الله عليه وسلم - و مشاعر المسلمين .

"...فَلَنُؤَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...." (البقرة: ١٤٤)

الإسلام عند الموت - ١

بعث حنذب بن عبد الله الحلبي - رضى الله عنه - إلى عسوس بن سلامة، زمن فتنه ابن الزبير، فقال: اجمع لى نفرأ من إخوانك حتى أحدثهم، فبعث رسولأ إليهم.

فلما اجتمعوا جاء جنذب و عليه بُرنسُ أصفر، فقال: نحدثوا بما كنتم تحدثون حتى دار الحديث فلما دار الحديث إليه حسر البرنس عن رأسه فقال: إنى أتيتكم ولا أريد أن أخبركم عن نبيكم، إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين، وإنهم التقوا - فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلاً من المسلمين قصد إلى غفلته.

قال: وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف، قال: لا إله إلا الله فقتله فجاء البشير إلى النبي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فسأله فأخبره حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع فدعاه فسأله، فقال: "لم قتلته؟". قال: يا رسول الله، أوجع فى المسلمين، و قتل فلاناً و فلاناً، و سمى له نفرأ، و إنى حملتُ عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله.

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "أقتلته؟". قال: نعم. قال: " فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟!....."

حديث صحيح أخرجه مسلم وغيره .

.....

تعالج هذه القصة أمراً حساساً فى حياة المسلمين . وهو حرمة الدم الإسلامى وعدم استحلاله تحت أى ظرف من الظروف . فالمسلم له ذات إنسانية مصونة ينبغى ألا يقترب منه أحد بالإهدار إلا بحق ، وليس أى أحد يجوز له أن يقتل مسلماً أو يسفك دمه تحت أى دعوى من الدعاوى ، مالم يكن ذلك بحكم قاض يقضى بالقصاص منه لقتل إنسان آخر ، أو كفر بواجب فيه محاربة لله ورسوله أو فساد فى الأرض .

و تأكيد حرمة الدم الإسلامى مسألة ممتدة فى كل الأحوال والظروف والعصور وخاصة فى زمن الفتن التى يقتتل فيها المسلمون ، ويسفك بعضهم دم بعض . فكل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه ، ومطلوب خاصة فى هذه الأيام إعادة التذكير بهذا الحكم الإسلامى الذى يستهين به بعض الناس ، تحت دعاوى مختلفة فيستبيحون الدماء ويستحلون النفوس ويفترون على الله والإسلام مالم ينزل به وحى أو يتحدث به تشريع .

إن جندب بن عبد الله البجلي - رضى الله عنه - يطلب من عسعس بن سلامة فى زمن فتنة ابن الزبير ، أن يجمع نفراً ، أى مجموعة من إخوانه ؛ حتى يحدثهم . وكان جندب قد استشعر فداحة الفتنة القائمة بين المسلمين على عهد عبد الله بن الزبير - رضى الله عنهما - فيقتل المسلم أخاه المسلم ، وتقطع الأرحام ، وتسيل الدماء وكل فريق من المتقاتلين يدعى أنه على الحق والصواب ، ونسى الجميع أن كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه ، وأن من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فقد عصم دمه .

لقد جاء جندب بن عبد الله البجلي ، وهو يرتدى بُرنساً ، والبرنس هو كل ثوب رأسه ملتصق به دراعة أو جبّة أو نحوهما ، فحسر البرنس عن رأسه ، وقال لمن جمعهم عسعس بن سلامة إنى أتيتكم لا أريد أن أخبركم عن نبيكم - صلى الله عليه

وسلم - بل أردت أن أحدثكم حديثاً مفتوحاً من القلب . ولكنى الآن أريد أن أحدثكم من عند نفسي ، ثم أخبركم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - بعث بعثاً من المسلمين ، أى فريقاً إلى قوم من المشركين لمقاتلتهم ، وكان فى المشركين رجل فائق القدرة ، ويستطيع أن يقتل كل من يقف أو يقح أمامه من المسلمين ، فحاول بعض المسلمين مغافلته لقتله والتخلص منه ، حتى تمكن منه أسامة بن زيد فرفع عليه السيف وحينئذ فإن الرجل المشرك نطق بالشهادة قائلاً : لا إله إلا الله ، ولم يعبا أسامة بهذا النطق ، وهوى عليه بالسيف وقتله !!

رجع المسلمون ، وأخبروا النبى - صلى الله عليه وسلم - بأمر بعثتهم وانتصارهم على المشركين ، وقصوا عليه ، ما كان من أمر أسامة والمشرك الذى أسلم قبل الموت ، وهنا سأل الرسول - صلى الله عليه وسلم - أسامة بن زيد :

" لم قتلته ؟ " والسؤال كما نرى فيه امتنكار واستهجان لقتل من قال : لا إله إلا الله ، حتى لو قالها بمجرد اللسان ، ويدافع أسامة عن نفسه قائلاً :
- يا رسول الله ، أوجع فى المسلمين ، وقتل فلاناً وفلاناً ، وسمى له نقرأ
وإنى حملت عليه ، فلما رأى السيف قال : لا إله إلا الله .

وهنا يأتى الرد فى استنكار واضح من الرسول -- صلى الله عليه وسلم .

" أقتلته ؟ " فيقول أسامة : نعم .

فبيّنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - قائلاً :

" فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟ "

وكان لا إله إلا الله . ستسائل كل من يقتل مسلماً بغير حق ، وستكون

خصماً له يوم القيامة تطالب بدمها المهدر وحياتها الضائعة ...

إن هذا السؤال يأخذ بُعداً آخر .

الإسلام عند الموت - ٢

يستنكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قتل من ينطق بالشهادة .
و يقول لأسامة بن زيد : فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم
القيامة؟! " وهنا يرد أسامة معتذراً :
" يا رسول الله ، أستغفر الله .
قال : " وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟"
قال : ففعل لا يزيد على أن يقول : كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت
يوم القيامة؟"

و يحكى أسامة بن زيد - رضى الله عنه - القصة فيقول :
بعثنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الحرقة من جهينة ، فصبحنا
القوم فهزمناهم ، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم ، قال :
فلما غشينا قال : لا إله إلا الله ، فكف عنه الأنصاري ، و طعنته
برمحي حتى قتلته .

قال : فلما قدمنا بلغ ذلك النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال لي :
" يا أسامة ، أقتلته بعدما قال : لا إله إلا الله؟! "
قال : قلت يا رسول الله إنما كان متعوذاً .
فقال : أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟! "
قال : فما زال يكررها عليّ حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم .
وفي رواية : " أفلا شققت عن قلبه حتى نعلم أقالها أم لا؟! "

.....

تشير القصة النبوية إلى استنكار الرسول - صلى الله عليه وسلم -
لقتل من يقول لا إله إلا الله ، ويدرك أسامة غضب الرسول - صلى الله عليه وسلم -
من فعلته فيعتذر ويقول : " يا رسول الله ، أستغفر الله "

فيكرّر الرسول - صلى الله عليه وسلم - استنكاره لقتل من يقول لا إله إلا الله قائلاً: " و كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟! " ويتكرر هذا التساؤل الاستنكارى الراض لقتل النفس البشرية بغير حق .

و هو ما يؤكد أسامة بن زيد فى سرده للقصة بنفسه ، حيث يصف بالتفصيل أحداث القصة كما يذكر أو يحدد مكانها الدقيق وهو الحُرقة من جهينة . لقد هزم المسلمون القوم ، و لحق أسامة مع رجل من الأنصار رجلاً من القوم المهزومين ، فلما لحقاه أو غشياه ، نطق بالشهادة فكف عنه الأنصارى أى توقف عن ملاحقته و قتله . أما أسامة فلم يتوقف ، ولاحقه و طعنه برمحه حتى قتله .

إن أسامة يسرد أحداث قتل الرجل كما جرت ، وقد عرف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخاطب أسامة وفقاً لرواية أسامة قائلاً:

" يا أسامة ، أقتلته بعد ما قال : لا إله إلا الله؟! "

فرد عليه أسامة : " يا رسول الله إنما كان متعوّداً " ، أى قال لا إله إلا الله لكى لا أقتله . أو ليحفظ دمه .

ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذى أغضبه قتل إنسان يعلن الشهادة ولو بلسانه يكرر السؤال مستنكراً ما فعله أسامة .

" أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله ؟ !! "

وما زال يكرر سؤاله الإنكارى حتى تمنى أسامة أن لم يكن قد أسلم قبل ذلك اليوم لإحساسه بقطاع فعلته ، التى فعلها بحسن نية ظناً منه بأن الرجل نطق بالشهادة تقيّه و خوفاً من الموت .

إن الرواية الأخرى للحديث التى تقول على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخاطباً أسامة " أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟ " تؤكد على أن المسلم يجب ألا يأخذ الناس بغير الظاهر ، أما الله فيتولى السرائر . يجب ألا نحاكم أحداً على نواياه المخبوءة بل نحاسبه على كلامه و أفعاله التى تصدر عنه علناً و بإرادته الحرّة أيضاً .

نحن لسنا مأمورين بالتفتيش في أعماق القلوب والنفوس ، ولكننا نحكم على الأقوال والأفعال التي نسمعها ونشاهدها ..

وإلا لو حكمنا بالنيات المخبوءة فإن الناس يقتل بعضهم بعضا هذا يرانى كافرا وأنا أراه كافرا ، فأبيح له أو أبيع لنفسى أن أقتله ويقتلنى ، ويتحول نظام المجتمع إلى فوضى ودم وخراب والعياذ بالله .

لقد حذر القرآن الكريم من القتل ، وصور لنا من يقتل نفساً بغير حق أو فساد في الأرض كأنما قتل الناس جميعاً ..

قال تعالى : "....مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ..."

(المائدة: ٢٢)

و تأمل قول الله تعالى :

"...وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا .."

لترى أن الإسلام دين الحياة ودين الرحمة .. أين ذلك من الذين يستبيحون حياة الناس وحرمااتهم تحت ذرائع مختلفة ليست من الدين ؟

إن الحفاظ على حياة الناس أصل من أصول الإسلام ، لدرجة أنه يحذر من

استخدام أية آلة يمكن أن تصيب أحداً دون قصد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مرّ فى مساجدنا ، أو أسواقنا ومعه تَبْلٌ فليمسك ، أو ليقبض على نصالها بكفّه أن يصيب أحداً من المسلمين منها بشيء ، هو حديث متفق عليه ، ويبين لنا إلى أي مدى يحرص الإسلام على حياة الناس ودمائهم ؛ فالذى يمشى ومعه سهم يجب أن يقبض على حديدتها أو رأسها حتى لا تصيب أحداً بمكروه سواء كان فى المسجد أو الشارع أو السوق أو أى مكان آخر.

الصحابه و الحمى - ١

تروى أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - فتقول : لما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم و صرف الله تعالى ذلك عن نبيه - صلى الله عليه وسلم .

قالت : فكان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، و بلال موليا أبى بكر مع أبى بكر فى بيت واحد ، فأصابتهم الحمى ، فدخلت عليهم أعودهم ، و ذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ، و بهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك ، فدنوت من أبى بكر ، فقلت له : كيف تجدك يا أبت ؟

فقال :

كل امرئ مصبح فى أهله و الموت أدنى من شراك نعله

فقلت والله ما يدرى أبى ما يقول . ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة ، فقلت له : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حنقه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمى جلده بروقه

فقلت : و الله ما يدرى عامر ما يقول ، قالت : وكان بلال إذا تركته

الحمى اضطلع بفناء البيت ، ثم رفع عقيرته ، فقال :

ألا ليت شعرى هل أبين ليلة بفتح و حولى إذ خرو جليل

و هل أردن يوماً مياه مجنة و هل يبدون لى شامة و طفيل...

(حديث صحيح ، أخرجه مالك و البخارى و مسلم و غيرهم)

.....

هذه القصة النبوية تكشف لنا جانبا من جوانب الابتلاء التى

ابتلى بها المسلمون فى أوائل عهدهم بالهجرة . و هذا الجانب يتمثل فى الوباء الذى

أصاب المدينة المنورة وأهلها ، وكانت الحمى ضيفاً ثقيلاً أصاب الصحابة رضوان الله عليهم و صرفه الله عن نبيه - صلى الله عليه وسلم .

و الحمى أو المرض عموماً يمثل اللحظة الحقيقية التى يعود فيها الإنسان إلى ذاته ليكتشف ضعفه وهوانه . إنه فى حال الصحة والعافية ينسى كثيراً من البديهيات ، وبعض الناس ينسى دينه وإيمانه والعباد باله - فيتجبر فى الأرض ويطغى على غيره من البشر ، ويظلم ويعر يد ، و يظن أن الحياة ستظل هينة لينة رخاءً ليفعل ما يريد دون صعوبات أو معوقات .. ولكن المرض يعيده إذا كان ذا فطرة سوية و نفس نقية إلى الحقيقة التى تناساها ، والحق الذى تجاهله فى غمرة قوته وعافيته فيجد نفسه ضعيفاً لا يقدر على شىء ، بل إنه أحياناً لا يستطيع أن ينتقل من موضع نومه أو مجلسه و يرى أنه محتاج إلى غيره لمساعدته أو يعينه على بلائه الذى أصابه .

و هنا تكون العظة و الاعتبار " إن فى ذلك لذكرى لأولى الألباب " فاعتبروا يا أولى الألباب " .. فهناك قوة سرمدية ، أبدية أزلية ، يجب ألا تغفل عنها وهى الله جل و علا .

و عائشة رضى الله عنها تروى ما أصاب الصحابة من حمى المدينة ، و تقدم لنا حال بعض أسرتها الذين أصابهم المرض . أبوها أبوبكر ، و بعض مواليه : عامر بن فهيرة و بلال بن رباح ؛ رضى الله عنهم أجمعين .. كل منهم أصيب بالمرض ، و صار قعيد البيت لا يبرحه ولا يخادره و انعكس المرض على كل منهم يذكره بالموت ، و التذكار بالموت يعنى اكتشاف صلابة الإيمان و قوة اليقين ، ثم وهو الأهم الرضا بالقدر ، و الاستعداد للقاء الله .

إن أبا بكر ربيب عائشة ابنته وهى تسأله عن حاله : كيف تجدك يا أبت ؟ يقول الشاعر الذى يصوغ الحياة فى بيت محكم من الشعر يؤكد حقيقة يتناساها الناس فى غمرة الحركة اليومية :

كل امرئ مصبح نسي أهله و الموت أدي من شراك نعله

إن الموت قريب من الإنسان قريباً شديداً ، حتى لو تجاهله أو تغافل عنه ،
ومثلما هي المسافة بين شراك النعل أو السير الذي يربط النعل على ظهر القدم ،
وصاحب النعل قريبة للغاية ، فالموت أيضاً قريب للإنسان قريباً شديداً .

تظن السيدة عائشة - رضى الله عنها أن أناها يهدى ، ولا يدري ما يقول
من شدة المرض أو الحمى فتذهب إلى مولاه عامر بن فهيرة ، وكان مسموحاً لنساء
النبي - صلى الله عليه وسلم - في ذلك الحين بالتحدث إلى غير بيت النبوة والظهور
أمامهم ، قبل أن تنزل آية الحجاب في تشريع خاص بهن ..

*** وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ... (الأحزاب: ٥٢)
إن عائشة تجد عامراً في الحال نفسها التي رأت والدها عليها .
وهو يقول :

لقد وجدت الموت قبل نوقه إن الجبان حتفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمى جلده بروقه

ويحمى جلده بروقه أى بقرنه . والأرجوزة تؤكد على حضور الموت وقربه
من الإنسان ، وفناء الدنيا الحتمى ، وهو ما يؤكد بلال رضى الله عنه أيضاً ، حين
يرفع صوته أو عقيرته حين تخف عنه الحمى ، فتسمعه عائشة يقول حالماً بالحياة
وأملأ .. وإن كان يأس الحمى يستبعد الحلم والأمل و يؤكد على الموت :

ألا ليت شعرى هل أبين ليلة بفتح و حولى إذ خرو جليل
وهل أردن يوماً مياه مجنة وهل يبدون لى شامة و طفيل ...

و الفج موضع بمكة ، ويقال إنه اسم واد دفن به عبد الله بن عمر ، و الإنذر
و الجليل من النباتات ذات الرائحة الطيبة . أما مياه مجنة و شامة و طفيل فهي
مواضع و كلها ترد على ذهن بلال المريض بالحمى الذى يستبعد الشفاء ورؤيتها من
جدد .

*** ***

الصحابة و الحمى - ٢

روت عائشة رضى الله عنها ما أصاب الصحابة من الحمى في المدينة، وكشفت لنا مشاعر الموت و اليأس من المرض التي اعترت والدهما أبا بكر وصاحبيه من الموالى : عامر بن فهيرة و بلال بن رباح رضى الله عنهم أجمعين .

قالت عائشة رضى الله عنها : فذكرت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم ما سمعت منهم ، فقلت : إنهم ليهذون ، وما يعقلون من شدة الحمى .

قالت : فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

" اللهم حبّب إلينا المدينة ، كما حببت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مدّها وصاعها وانقل وباءها إلى مهيجة " .

و يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم - لما قدم المدينة ، هو وأصحابه أصابتهم حمى المدينة حتى جهدوا مرضاً وصرخ الله تعالى ذلك عن نبيه - صلى الله عليه وسلم - حتى كانوا ما يصلون إلا وهم قعود .

قال : فخرج عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم يصلون كذلك ، فقال لهم : " أعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم " قال : فتجشم المسلمون القدام على ما بهم من الضعف و السقم التماس الفضل .

.....

الابتلاء سنة من سنن الله فى خلقه ، لمعرفة مدى صبرهم واحتمالهم ، واختبار صلابة إيمانهم وقوة يقينهم . ضعاف الإيمان يصيبهم الهلع والرعب وينهارون سريعاً .

أما أقوياء الإيمان فيزدون كل شىء إلى الله ، ويسلمون بقدر الله ؛ ويطلبون منه العون والساد .

قال تعالى: "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَنَشِرَ الصَّيْرِينَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٧﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" (البقرة ١٥٥-١٥٧)

وقال تعالى: "لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (ال عمران: ١٨٦)

والحمى التى أصابت الصحابة فى المدينة جعلتهم يتذكرون الموت أو يياسون من الحياة ، والمشاهد التى رأتها عائشة رضى الله عنها لأبيها وعامر بن فهيرة و بلال بن رباح ، جعلتها تنقل ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وتصف أقوالهم بالهذيان ، و أن الحمى أفقدتهم عقولهم .

و نرى تعليق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على ما قالته عائشة يتجه فى مسار آخر ، يتناول المدينة وطناً للمسلمين ، والدعاء بنقل الوباء إلى مكان آخر .

إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يدعو ربه قائلاً :

" اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة ، كما حبيبت إلينا مكة أو أشد ، وبارك لنا فى مَدُّهَا وصاعها ، وانقل وباءها إلى مهيجة ."

هذا الدعاء يشير إلى حبّ النبي - صلى الله عليه وسلم - لوطنه الأصلي مكة ويرد على الذين يقولون إن الإسلام يتناقض مع الوطنية . فحب الأوطان والتمسك بها والدفاع عنها جزء من الإيمان ، ومن يفرض فى وطنه أو يقدمه للاعداء دون دفاع هو خائن لله ورسوله ، فالوطن هو أرض الإسلام التى ينبغى ألا يفرض فيها مسلم تحت أى ظرف من الظروف .

و النبي - صلى الله عليه وسلم - يطلب من ربه أن يحبب إليه وإلى الصحابة المدينة مثلما حبيب إليه مكة أو أشد ، فهى البلد الذى أوى ونصر ،

وهى البلد الذى أولياؤه أولياء بعض ، مع ما أصابها من الحمى ؛ يرجو أن يكون حبها مستمرا على أن يبارك فى قلبها وكثيرها أو حسب تعبيره - صلى الله عليه وسلم - مذهباً وصاعها ، والمدّ والصاع من مكابيل الحبوب ونحوها ، والمدّ ربع الصاع ، والصاع يبلغ نحو خمسة أرتال ، أى ما يزيد على اثنين من الكيلوات قليلاً بموازين عصرنا ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - يطلب من ربه أن ينقل وباء المدينة إلى مهيجة أى الجحفة ، وهى موضع على طريق المدينة وكانت آنئذ يجتنبها الناس ، لأن ماءها كان يصيب من يشربه بالحمى ..

لقد كان ابتلاء المسلمين فى المدينة بالحمى تجربة شديدة ، ولكنهم تحملوها بصبر ورضاً .. أجهدتهم إجهاداً شديداً حتى إنهم كانوا لا يقدرّون على أداء الصلاة وقوفاً ، فكانوا يؤدونها وهم قعود . وقد أخبرهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن فضل صلاة القاعد يساوى نصف فضل صلاة القائم ، وهو ما حفزهم على مغالبة مرضهم وتحمل أو تجشم الصلاة وهم قوف على ما هم فيه من جهد ومشقة ومرض .. حرصاً على نيل ثواب الصلاة كله ، وفضلها كله ..

ولا شك أن الله سبحانه رءوف رحيم بعباده ، هو أرحم بهم من الأم بولدها ولا يكلفهم ما لا طاقة لهم به ، ولكن القصة النبوية تشير إلى حرص المسلمين على أداء الصلاة فى صورتها المثلى لئبناوا الفضل كله بإذنه تعالى .

ولا يعنى الصلاة قاعداً أنها غير مقبولة ، بل هى مقبولة إن شاء الله مادام صاحبها من نوى الأعذار والضرورات ، ولكن التشريع يحض المسلم على الأداء الكامل للعبادات طالما أمكنه ذلك ولو فى شىء من المشقة ؛ ونحن نعلم أن صلاة النافلة تجوز من قيام وقعود للمريض والسليم على السواء ، ولكن صلاة القائم تفضل صلاة القاعد .. فاللهم اشف مرضانا وارحم موتانا ، وأهلك أعداءنا ، ولا تخيب رجاءنا ، ونجنا برحمتك من القوم الظالمين .

ألف دينار في البحر

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :- " إن رجلاً من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يُسَلِّفه ألف دينار . فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم .

فقال : كفى بالله شهيدا .

قال : فائتنى بالكفيل ..

قال : كفى بالله كفيلا .

قال : صدقت . فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج في البحر ، فقضى حاجته . ثم التمس مركباً يركبها يقدم عليه للأجل الذى أجله فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار ، وصحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها إلى البحر ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى تسلفت فلاناً ألف دينار ، فسألنى كفيلاً ، فقلت . كفى بالله وكيفلاً . فرضى بك ، وسألنى شهيداً . فقلت : كفى بالله شهيداً ، فرضى بك ، وإنى جهدتُ أن أجد مركباً أبعثُ إليه الذى له فلم أجد . وإنى أستودعُكها ، فرمى بها إلى البحر حتى وُلِّجَتْ فيه ، ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده . فخرج الرجل الذى كان أسلفه ، ينظر لعل مركباً قد جاء بماله ، فإذا بالخشبة التى فيها المال ، فأخذها لأهله حليباً ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة . ثم قدم الذى كان أسلفه ، فأتى بالألف دينار وقال :- و الله ، ما زلتُ جَاهداً فى طلب مركب لاتيكَ بمالك ، فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت به .

قال : هل كنت بعثت إلى شيئاً؟

قال : أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل الذى جئتُ فيه .

قال : فإن الله قد أتى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بالألف

دينار راشداً .

(أخرجه البخارى ، وأحمد ، والبيهقى)

تحمل القصة التي وردت في الحديث الشريف عناصر الحكى القصصى بما فيها من تشويق يصنعه تسلسل الأحداث ، و متعة يقدمها البناء القصصى حتى يصل القارئ أو السامع إلى نهاية القصة .

فهناك الحدث أو الفكرة التي تتمثل فى قيام رجل من بنى إسرائيل بالاقتراض من رجل آخر مبلغ ألف دينار، ويحاول الأول ردّ هذا المبلغ إلى الدائن أو المقرض فتعجزه الوسيلة ، فيضطر إلى إرسالها عن طريق خشبة يلقى بها فى البحر. حيث أخذ خشبة فنقرها : أى حفرها ، وصنع تجويفاً بداخلها يتسع للمال الذى اقترضه من الرجل مع رسالة تحمل اسم صاحب الدين . ثم زجج موضعها : أى سمرها بمسامير كالزجّ لتكون محكمة الإغلاق فتنجو من رشح الماء الذى يمكن أن يفسدها بالبلل. ثم رمى بها إلى البحر حتى ولجت فيه ، أى دخلت فى البحر، وعامت على سطحه ليحملها الموج إلى المكان المتوقّع إذا شاء الله . فقد جَهد أن يجد مركباً : أى بذل غاية جهده لعله يجد مركباً يحمله إلى صاحب الدين حتى يؤديه إليه . وشاءت إرادة الله أن تصل الخشبة إلى صاحب الدين الذى أراد أن يتخذها وسيلة للتدفئة ، ولكنّه عند نشرها : أى قطعها بالمنشار حتى يستخدمها وقوداً و حطباً يشعل فيه النار وجد المال والمرسالة .

وهناك الزمان الذى تجرى فيه أحداث القصة ، وهو زمن بنى إسرائيل أى فى عصر بعيد ضارب فى القدم ، وهو زمن له دلالاته فى سياق القصة حيث يشير إلى طبيعة الأخلاق و ثباتها لأنها مرتبطة بخصائص الإنسان وسلوكه فى كل زمان، فالإنسان لا تتغير خصائصه بتغير الزمان ولا تتغير قيمة النبيلة أو غير النبيلة بمرور الأيام ، فالخير هو الخير ، و الشر هو الشر ، وإن تغيرت الوسائل والغايات .

وهناك المكان الذى يشمل البحر والمركب و الخشبة . و البحر يشير إلى محيط كبير يتحكم فى حياة الناس أو يرتبط بها إلى حد كبير ففيه رزقهم ومعاشهم. يعمل به اللحم الطرى ، و ينتقلون فوقه من مكان إلى آخر عبر المركب والسفن ، كما تطفو فوقه الكائنات و الجمادات التى لا تغطس أو لا تغرق ، و كانت الخشبة

والمركب فى قصتنا مكاناً يطفو فوق الماء و يحمل بعض أطراف القصة أو أحداثها من موضع إلى آخر .

المركب تحمل المدين ، والخشبة تحمل الدين - والمكان هنا يشير إلى اتساع الحياة باتساع البحر و يحدّد الحقيق كما تتحدد مساحة السفينة والخشبة .
أما الشخصية القصصية - كما رأينا - فهى شخصية مبهمه منكّرة " رجل من بنى إسرائيل " ، و ذلك للدلالة على شيوع أمر " المداينة " بين الناس ، واحتياج كل شخص إلى غيره من الناس يقترض منه أو يقرضه مساعدة و تضامنا و تكافلاً و حلاً للمشكلات . -

و الرجل الأول فى القصة (المقترض) يشبه الرجل الآخر (المقرض) فلا اسم لهما ولا مميزات ولا صفات إلا نسبتهما إلى بنى إسرائيل و عصرهم .

و يقوم الحوار بجلاء فكر الشخصية القصصية و تصوّرها عن المداينة وارتباطها بالإيمان العميق و الوثيق بالخالق جلّ و علا . فالرجل المقترض يطلب من صاحبه أن يسلفه ألف دينار . و هذا يطلب شاهداً فيقنعه بأن الله خير الشاهدين "كفى بالله شهيداً" ثم يطلب منه كفيلاً ، فيقنعه بأن الله خير الكافلين " كفى بالله كفيلاً " ، وحينئذ يقول له : صدقت . إنه حوار موجز مكثف يبرز إيمان الرجلين ، الدائن و المدين و ثقتهما المطلقة فى الله سبحانه و تعالى شهيداً و كفيلاً لا يضيع الحقوق ولا يهدرها مهما حاول الناس إخفاء الحق أو طمس ملامحه ، فهناك من يرى و يسمع و يهيمن بقدرته على جميع المخلوقات فلا يظن أحد أنه يمكن أن يهرب بحق من حقوق الله .

و كما نرى فى سياق القصة نجد عقدها تتمثل بالتدرج فى الإقراض دون شاهد أو كفيل إلا الله ، فالناس كما جرت العادة يُشهدون على معاملاتهم ، وياتون بضامن يضمن ديونهم ، ولكن الرجلين ارتضيا عن إيمان أن يكون الله شهيداً و كفيلاً ..

ثم تزداد العقدة إحكاماً وقوة حين يعتزم المدين ردّ الدين ، فلا يجد مركباً أو سفينة تحمله إلى بلد الدائن أو المقرض وحين ييأس من وجود من يوصل الدين إلى صاحبه ، يفكر بإرساله داخل تجويف خشبة يلقيها في الماء ، واثقاً في الله ومسلماً إليه الأمر : " اللهم إنك تعلم أني تسلفت فلاناً ألف دينار ، سألتني كفيلاً . فقلت : كفى بالله وكيفلاً . فرضى بك .

وسألتني شهيداً ، فقلت كفى بالله شهيداً ، فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أجد " وإنى أستودعكها .. فرمى بها إلى البحر ، حتى ولجت فيه ثم انصرف .. "

و كأن القاريء أو المستمع يتشوق لمعرفة هل ستصل الخشبة إلى الدائن ويعتز على ما فيها من أمواله ؟ أو إنها ستذهب مع الموج إلى مكان آخر لا يعرفه أحد ، أو إنها ستصل إلى يد شخص آخر لا علاقة له بالدائن أو المدين ؟

هنا نجد القصة تقدم لنا صورة المدين وحرصه على تسديد دينه ، ولو اضطر إلى ذلك مرتين .. فهذا هو بعد أن وضع دينه في الخشبة التي ألقاها في الماء ، يجد مركباً يركبه حتى يصل إلى الدائن ، ويعتذر إليه عن تأخره عن الأجل المحدد للسداد بسبب عدم وجود مركب يركبه في الفترة الماضية ، ولكن الدائن المؤمن الذي رضى بالله كفيلاً وشهيداً لا يستخفه الطمع ، ولا تغريه الدنيا ، فيحاول أن يستفسر من صاحبه : " هل كنت بعثت إليّ شيئاً ؟ "

ولكن المدين المؤمن الحريص على سداد دينه ، لا يجيب مباشرة بما فعله من تجويف للخشبة ووضع المال فيها وإلقائها في المال ، ولكنه يجيب بما يشبه الاعتذار : " أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئتُ فيه "

وهنا تتجلى روعة الإيمان الموصول بالله والخوف منه ، فيقول له الدائن : " فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشداً " .

و هكذا تنحل عقدة القصة وفقاً لفهوم إبّانى يميّز طرفى القصة . ويحرص كل منهما على الوفاء بحق صاحبه : ذنباً أو اعترافاً بسداه .

إن الشرائع الإلهية حريصة على توفير العلاقات الإنسانية الطيبة فى المجتمعات وأساس هذه العلاقات هو المعاملة الطيبة ، وهذا من أبرز معطيات القصة ؛ فالدين المعاملة كما علمنا الإسلام الحنيف والمعاملة الطيبة تقضى من القادر مساعدة العاجز ، والقوى مساعدة الضعيف ، والغنى مساعدة الفقير .

هذا الالتزام الخلقى الإنسانى تجاه الآخرين ممن يحتاجون إلى العون والمساندة يمتد إلى الالتزام والوفاء بالعقود والاتفاقات والمواثيق ، وهو ما رأيناه بين المدين والدائن ، فالدين حريص على الوفاء بالتسديد فى الأجل المحدد ، والدائن لم يستغل فرصة وصول الخشبة وإخفاء الحقيقة عن صاحبه الذى أبدى استعداداً لتسديد الدين مرّة أخرى لعلمه أن الطريقة الأولى للتسديد لم تكن طبيعية ولم تكن مؤكدة .. قارن هذا بما يحدث الآن من فساد بعض الذمم والنفوس ، وانظر إلى عدد القضايا المرفوعة فى المحاكم وأقسام الشرطة بسبب الشيكات التى لم تسدد وإبصالات الأمانة التى لم تدفع والوعود التى لم تنفذ ..

ولنا أن تخيل أثر ذلك على السمعة والثقة وحركة التعامل بين الناس ..

إن الأمانة فى التعامل هى أساس التجارة والعلاقات الإنسانية الاجتماعية ولذلك نجد أن الالتزام الدينى مما يجعل الناس يرددون دائماً : الدين المعاملة .

و يعطينا الحديث ملامحاً سياسياً من ملامح التعامل بين الناس وهو ضرورة الإشهاد والتوثيق فى معاملتنا مع الالتزام الدينى والخلقى .. فعند المداينة أو المبايعه لابد من الكتابة والتوقيع والإشهاد والتوثيق ، حتى لا تضيق الحقوق عند تغير الظروف وتحوّل النفوس .

قال تعالى في آية المداينة وهي من أطول آيات القرآن الكريم :
 "يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بَدِينَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى
 فَأَكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ " (البقرة: ٢٨٢)

و قال تعالى :

"يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ " (المائدة: ١)

و هذه الآيات وغيرها تدلنا على ضرورة تسجيل المعاملات و توثيقها
 بالشهادة مع الوفاء بها ، حتى لا يحدث خلل في التعامل بين الناس .

و يجب أن يتأكد المسلم ، عميق الإيمان ووثيق الصلة بالله ، من أن الله
 شهيد على كل التعاملات و السلوكيات و النوايا ، وهو أيضاً المضمن و الكفيل الذي
 لا يضيع الحقوق ، و قدمت لنا القصة نموذجاً حياً ، و مثلاً حاضراً ، عندما وصلت
 الخشبة إلى صاحب الدين فتسلمه ، وهذا يؤدي بنا إلى معطى آخر من معطيات
 القصة وهو أن حبل الله موصول إذا انقطعت الأسباب بين الناس .

بعض الناس يظنون أنهم فقدوا الأمل أو فقدوا الأسباب بما يريدون ، ولكن
 الله سبحانه - وهو المهيمن القادر القوي - يصل حباله بمن يؤمن به ، ولا يضيعه .
 إن القصة التي وردت في الحديث الشريف تقدم لنا صورة مضيئة
 للتعامل الإنساني القائم على الالتزام ، و مراقبة الله ، و الخوف منه ، و رفض
 الانحراف مهما كانت المغريات و المخاوف .

و صدق الله إذ يقول : "..... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا " (الطلاق: ٢)

"..... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِّنْ أَمْرِهِ يُسْرًا " (الطلاق: ٤)

جبريل عليه السلام يعلم الصحابة

عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال :

بينما نحن جلوس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثوب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه ، وقال :

- يا محمد ، أخبرنى عن الإسلام ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- الإسلام : " أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً " .

قال : صدقت ، فعجبنا له يسأله ويصدقه .:

قال : فأخبرنى عن الإيمان .

قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن

بالقدر خيره وشره .

قال : صدقت .

قال : فأخبرنى عن الإحسان ..

قال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : فأخبرنى عن الساعة ..

قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

قال : فأخبرنى عن أماراتها .

قال : أن تلد الأمة ربقتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء

يتطاولون فى البنيان .

ثم انطلق فلبثت ملياً ، ثم قال :

- يا عمر! أتدري من السائل ؟

قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم .

أخرجه : مسلم و أحمد و أبو داود و الترمذى و النسائى و البيهقى .

.....

أول عناصر القصة هنا هو الحدث أو الموضوع ، ويدور حول سائل يسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن عدة أمور ، هى الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة ويبدأ الحدث بوصول السائل وإلقائه الأسئلة وتصديقه بإجاباتها التى يقدمها له الرسول - صلى الله عليه وسلم - في قوله " تشهد أن لا إله إلا الله الخ " أى تقرّ وتعتزف بوحداية الله - جل و علا ورسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وبقية أركان الإسلام ، و " تقيم الصلاة " أى تواظب على إقامتها كاملة الشروط والأركان ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت : " إن استطعت إليه سبيلاً " ، والمقصود بالاستطاعة هنا : القدرة على السفر وامتلاك متطلباته من طعام وشراب ومصروفات وقوة تحمل لمشاقه وصعوباته . ويصدق السائل على ذلك فيتعجب الصحابة من ذلك ، فيسأله عن الإيمان ؛ فيجيبه : تؤمن بالله : أى تؤمن بوحدايته - لا شريك له - وتعبده وحده دون سواه . وملائكته وكتبه : أى الكتب المنزلة مثل التوراة والإنجيل والقرآن ؛ ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ؛ أى ما قضى الله به على عباده وقدر حدوثه لهم . فيصدق السائل ، ويسأله عن الإحسان فيجيبه . والإحسان يقصد به إتقان العبادة وكمالها . " كأنك تراه " يقصد به أقصى درجات الرقابة فلا تفعل إلا ما يحب وتنتهى عما لا يحب .

ويسأله عن الساعة فيجيبه بأن المسئول وهو النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يعلم عنها إلا ما يعلمه السائل ، فيطلب منه معرفة علاماتها أو أماراتها أو الإشارات الدالة عليها ، فيخبره أن تلد الأمة ربتها ، والأمة : أى المرأة الرقيق المملوكة لغيرها وفقاً للنظام الدولى الذى كان سائداً قبل نزول الوحي . ويقصد بقوله " ربتها " ، أى سيّدها ؛ كناية عن انقلاب الأوضاع الاجتماعية ، ومن علامات الساعة أيضاً تطاول الرعاء فى النيان...ونعلم من الحدث بعد أن لبث عمر مليا وانتظر بعض الوقت عقب انصراف السائل أنه كان جبريل عليه السلام .

وثانى هذه العناصر ، هو الشخصية القصصية ، وتبدولنا منذ بداية الحديث حتى قرب نهايته شخصية غير معروفة ، أو غريبة على المكان وأهله ، ولكن القصة تقدمه لنا فى صورة رجل شديد بياض الثوب ، مما يدل على علو مكانته وأصالته مثبته ، ثم إن له من صفاته الجسدية شدة سواد شعره ؛ وهناك أيضاً صفات معنوية له : فهو غير مسافر ولا يعرفه أحد . والعادة أن يكون غير معروف لدى الناس ، قادماً من سفر ، وتبدو عليه علامات المسافر من رهق وتعب وغير ذلك ، ولكن شخصيتنا مع وجودها الغريب أمام الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضوان الله عليهم ، لا تبدو عليهم علائم السفر بل ترتدى ثوباً شديد البياض ، وهو ما يشوق إلى متابعتها والتطلع إلى معرفة من هى ؟

و ثالث عناصر القصة هو الحوار ، و طبيعى أن تعتمد القصة هنا على الحوار فهناك سائل يسأل ، و مجيب لابد أن يجيب ، ومن خلال السؤال والإجابة تنمو المعلومات المراد إيصالها للسامعين ، فضلاً عن السائل نفسه ، و يدور الحوار الذى يكشف عن أهمية المتحاورين و أهمية الموضوع حول أركان الدين ومقوماته ، بحيث يكون المسلم على أحسن صورة فى إيمانه و معتقده و اتصاله بالخالق المعبود جل و علا .

ورابع العناصر البارزة في القصة هو ما يتعلق بالذروة والختام
 أو النتيجة فقد جاء الرجل ليسأل ثم يسأل ثم يسأل . دون أن يعرفه الصحابة ، وبعد
 أن انصرف الرجل ؛ مكث و كأنه ينتظر ليعرف من هو هذا الرجل الغريب الذي لا
 تبدو عليه علامات السفر ، فإذا بالرسول صلى الله عليه وسلم يفسر الأمر لعمر ،
 ويخبره أنه الذي كان يسأله هو جبريل عليه السلام ، جاء على هيئة رجل شديد
 بياض الثوب ، شديد سواد الشعر ليعلم الصحابة رضوان الله عليهم أمور الدين
 عن طريق الحوار مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

تعطينا هذه القصة أكثر من معطى ، فهي تفرق بين مستويات عديدة للعقيدة
 فالإسلام مرحلة من مراحل العقيدة تليها مرحلة الإيمان تليها مرحلة الإحسان ،
 الإسلام أولى درجات الدين بإقامة أركانه الخمسة : الشهادتين والصلاة والصيام
 والحج لمن استطاع إليه سبيلاً .

والإيمان إقامة التوحيد عن تسليم قلبي خالص مع الإيمان بالله وملائكته
 وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .

قال تعالى :

"قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلِّ لَمْ تُوْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسَلَمْنَا
 وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ
 مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا " (الحجرات: ١٤)

و في هذه الآية الكريمة بيان للفارق بين الإسلام والإيمان . الإسلام
 تظهره أعمال الجوارح بالقول والسلوك ، أما الإيمان فهو الاطمئنان القلبي
 ولاستسلام بالطاعة لله ورسوله . وقد وردت معظم أركان الإيمان في قوله تعالى :
 "ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ءَ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ
 وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ءَ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ءَ " (البقرة: ٢٨٥)

و تعطينا القصة إجابة ما عن موعد الساعة أو القيامة ، فمعرفة هذا اليوم وتحديد سر من أسرار الحق سبحانه وتعالى اختص به نفسه دون خلقه ، ولكن هناك علامات من علاماته تشير إليه وإلى اقترابه .

قال تعالى :

"يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ... (الأحزاب: ٦٣)

و قال تعالى : "إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ " (فصلت: ٤٧)

و قال تعالى : "..... وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا " (الأحزاب: ٦٣)

ومع ذلك فإن القصة تشير إلى أن للساعة علائم ومقدمات تدل على اقترابها ، منها ما ورد في الحديث الشريف أو القصة النبوية كأن تلد الأمة ربتها ، أى تصير الأمة المسترققة سيدها صاحبته التى اشتريتها وأنفقت عليها ، وهذا كناية عن انقلاب المواضع الاجتماعية . وفقدان الاحترام المتبادل ، وحلول الاستعلاء المرذول بدلاً من التواضع المحمود .

قال تعالى على لسان لقمان عليه السلام لابنه بوصيه :

"وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ

اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٧٦﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ

صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ " (لقمان : ١٨-١٩)

ومن أمارات الساعة أيضاً أن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان . و " الرعاء " يقصد به الرعيان الذين يرعون الإبل والماشية ونحوها و قوله الشاء : يقصد به الشياه . وقوله " يتطاولون فى البنيان " يقصد به المفاخرة والمباهاة ، وكلمة " التطاول " هنا ، فيها معنى الافتعال والادعاء ، لذا فالتطاول فى البنيان ، يشير إلى ما يحاوله بعض الناس من ارتقاء مواضع ليست لهم ، وادعاء درجات أو مناصب لا يستحقونها ، أو مكانة لا يستحقونها -

بحكم تواضع قدراتهم ومواهبهم وإمكاناتهم ، ولا يظنن أحد أن الإسلام يقلل من قيمة أحد ، أو يعبر عن عنصرية تجاه بعض الأفراد في المجتمع ، أو يحتقر بعض المهن والأعمال ، فهو الذى جعل الناس سواسية كأسنان المشط ، والمفاضلة بينهم تقوم على أساس التقوى ، وهو يشيد بكل عمل شريف يأتى من الكد والكسب والعرق ، وكان نبي الله داود يأكل من عمل يده .

و القصة التى بين أيدينا تجعل انقلاب الأوضاع دليلاً على قيام الساعة، لأن الأمور صارت غير طبيعية ، حيث ارتقى الأدنى مكانة الأعلى دون حق، ونزل الأعلى إلى موضع الأدنى دون ضرورة أو مسوغ .. وهكذا تقوم الساعة .

ومن معطيات القصة إرساء منهج إسلامى تربوى معرفى سبق النظريات المعاصرة التى تكثر من الرطانة حول ما يسمى حق السؤال أو المسألة .. ففى القصة سؤال يؤدى إلى جواب .

السؤال فى الإسلام حق وواجب ووسيلة معرفية تربوية ، والإجابة فريضة على كل من يعرف و يقدر على تقديمها ، وقد وضعها الإسلام فى إطار محترم وراق ، ونعى على من يخالفها ، لأنه يخالف المنطق والأصول المعرفية .

"وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ" (الحج : ٨)

وقال تعالى : "وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ " (العنكبوت : ٤٦)

وقال تعالى : "وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ " (النحل : ١٢٥)

ولا ريب أن منهج المعرفة فى الإسلام له أبعاد كثيرة يصعب الحديث عنها فى هذا الحيز الضيق ، ولكنه فى النهاية ، يجعل المسلم يعيش عمره كله طالباً للعلم، محبباً للمعرفة باحثاً عنها فى كل المكان .

وفى القصة صورة مضيئة للعلاقة بين المعلم والمتعلم ، هى علاقة الإخلاص والبذل والعطاء من جانب الأول . والتواضع والجدية والاحترام من جانب الآخر.

إن جبريل عليه السلام يقترب من النبى ، صلى الله عليه وسلم - لا يبخل بإجابة ولكنه يجيب ويوضح ويشرح ، لأن هذه مهمته بوصفه الداعية الأول الذى يقدم القدوة والنموذج للأجيال التالية من الدعاة والمعلمين إلى يوم الدين ... ثم انظر إلى تواضع المصطفى صلى الله عليه وسلم حين يخاطب عمر - رضى الله عنه - وهو يُعلمه بشخصية الرجل الذى جاء يسأل :

" فإنه جبريل أناكم يعلمكم دينكم " .. لم يقل أنا الذى يعلمكم ، ولكنه نسب العلم إلى جبريل الذى قام بدور السائل ، ومع ذلك فهو " المعلم " الذى يقدم نموذجاً هادئاً وبسيطاً ومثمراً لكيفية التعلم بعيداً عن الأمر والنهى المصحوبين بالزعيق والصياح والصراخ .. إنها مدرسة النبوة فى تألقها الساطع الوديع الذى يجمع القلوب ويؤلف الأفتدة ويشرح الصدور ويحيى النفوس ...

القرد و الخمر

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن رجلاً حمل معه خمرأ فى سفينة يبيعه ، ومعه قرد - قال : فكان الرجل إذا باع الخمر شابه بالماء ، ثم باعه - قال : فأخذ القرد الكيس ، فصعد به فوق الدقل . قال : فجعل يلرح دينارأ فى البحر ، ودينارأ فى السفينة حتى قسمه . وفى رواية أخرى : إن رجلاً كان يبيع الخمر فى سفينة ، ومعه فى السفينة قرد - فكان يشوب الخمر بالماء . قال : فأخذ القرد الكيس ، ثم صعد به فوق الدور ، وفتح الكيس ، فجعل يأخذُ دينارأ فيلقيه فى السفينة ، ودينارأ فى البحر حتى جعله نصفين " (أخرجه أحمد والبيهقي)

.....

جتمع فى قصة هذا الحديث عناصر القصة المعروفة . فالحدث هنا هو بيع الخمر المغشوش مخالفة لما استقر عليه المجتمع من الأمانة فى البيع والشراء ، وثقة المشتري فى البائع الذى يفترض أن يكون أمينأ .

و المكان هنا هو السفينة والبحر . والسفينة تمثل المجتمع بحكم ما تضمه من مسافرين وبحارة على ظهرها يشيرون إلى أفراد المجتمع الذين تتفاوت وئلائفهم ومهنهم وأعمالهم ، واحتياج بعضهم إلى بعض ، وبخاصة فى البيع والشراء ، ومنهم بائع الخمر الذى يسعى إلى الكسب ولو كان بالغش أو الخروج على قواعد المجتمع .

و سوف نلاحظ أن الزمان جاء مجهولأ فى القصة على العكس من المكان ولعله يشير هنا إلى فترة لم تكن فيها الخمر محرمة ، وكان الناس يتداولونها مثل

بقية السلع وهو ما يشير من ناحية أخرى إلى تحريم الغش فى الأزمنة كافة ،
والسلع كافة .

أما عنصر الشخصية فى القصة فيضم شخصية البائع الغشاش
والقرد المرافق له وكلاهما يكمل الآخر من حيث إن البائع يخرج على سياق
المواضعات الاجتماعية فى البيع والشراء بغش بضاعته ، والقرد يستنكر هذا
الخروج ويرفضه .

ثم لنا أن نتأمل موقف القرد الذى يمثل الطبيعة الحيوانية والفطرة
التلقائية فى التصدى لخروج الإنسان عن المواضعات الاجتماعية أو ما يمكن
تسميته بالفطرة الإنسانية وهذا التصدى هو ما يفسر بذروة العقدة القصصية فى
الحديث ، حيث تنحل بعدئذ بقيام القرد بالصعود إلى الدقل : وهو الصارى الذى
يرفع فوقه شرع السفينة ، وهو أعلى جزء فيها حتى لا يتمكن منه صاحب الخمر ،
ويأخذ فى تقسيم ما فى كيسه من مال ، فيطرح : أى يرمى ما فى الكيس ، أى إن
القرد أخذ يرمى ديناراً من ثمن الخمر فى الماء ، ويرمى آخر فى السفينة حتى صار
المال قسمين أو نصفين ، إشارة إلى أن النصف الذى ألقاه فى الماء يعادل الجزء
المغشوش من الخمر. لأن الرجل كان يشوب الخمر بالماء ، وشاب يشوب : أى
خلط يخلط ، أى خلط الرجل الخمر بالماء فلم تعد صافية وصارت مغشوشة .. الماء
طبيعى والخمر مغشوشة ، وفى الحالين نشهد المفارقة بين موقف الإنسان الذى
ينحرف بطبيعته والحيوان الذى يصحح له هذا الانحراف ، فى بيع الخمر أو شربها
على السواء .

لا ريب أن الخمر أم الخبائث ، وهى من الموبقات المهلكات على المستويين
 الفردى والإجتماعى وقد تدرج القرآن الكريم فى تحريمها . فقد كانت شائعة فى
 الجاهلية . وكان ينتج عن تعاطيها شرٌ كثير ، قال تعالى :

"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ
 وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا" (البقرة: ٢١٩)

وقال تعالى : " إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةَ
 وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ
 أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ " (المائدة-٩١)

وقد تمنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه - أن يتم تحريم الخمر تماماً لما
 تسببه من شرٍ وأذى ومتاعب وخسائر للأفراد والناس جميعاً ، فنزل قوله
 تعالى: "...إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رَجَسٌ مِّنْ عَمَلِ
 الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (المائدة: ٩٠)

ونلاحظ ارتباط الخمر بالميسر أو ما يعرف بالقمار ، وعبر عنها القرآن
 الكريم بالرجس ، وكان التحريم بالاجتناب ، أى البعد تماماً ، ولذا كان الحديث
 الشريف منبهاً إلى لعن الخمر وشاربيها وبائعها وشاربيها وكل من يشارك فى
 تقديمها أو صنعها أو تسهيل أمرها .

وفى سياق القصة نجد إشارة إلى خلة مذمومة وهى " الغش " الذى
 يتحقق غالباً فى البيع والشراء . فهو صفة ذميمة فى كل الأحوال ، وقد تبرا الرسول
 صلى الله عليه وسلم من الغش والغشاشين ، فقال : " من غش فليس منا " ،
 وهذه البراءة تشير إلى بشاعة جريمة الغش فى كل الظروف والمناسبات . والمسلم
 الحق هو الذى يقول الحق ويقول الصدق ويخشى الله فى السر والعلن .

تقدم لنا القصة موقفاً دالاً من الحيوان الذي هو القرد ، فى رفضه لانحراف الطبيعة البشرية . فالفطرة السوية فى الإنسان أو الحيوان أو الطير الذى فطرها الله عليها ترفض الانحراف ومخالفة الفطرة . وهو ما رأيناه فى تصرف القرد حين رأى صاحبه ينحرف عن فطرته ويخرج عليها ، فيقوم القرد بتصحيح هذا الانحراف وإعادة صاحبه إلى سواء الصراط .

ومن مجمل القصة يتبين لنا أن التشريع الإلهى فيه خير كثير للعباد والبلاد . فالخمر لا تنتج إلا الشرّ والأذى ، وعند تناولها يغيب العقل ، ويضيع الرشد ، ويضل الإنسان وعندئذ يرتكب من الجرائم والموبقات ، ما يؤدى به إلى طريق الظلام والضياغ والجريمة فىسئء إلى نفسه وإلى مجتمعه .

وتحريم الخمر ليس قيدياً على الإنسان أو حرماناً له من متع الحياة ، بقدر ما هو صيانة لنفسه و نفوس المجتمع .. ولسنا الآن فى مجال تعديد صور الخسارة بالنسبة للإنسان فى نفسه وبدنه وصحته وماله وعرضه ودينه ، وبالنسبة للمجتمع فى أفرادهِ وثرواته وقيمته وأخلاقه وأمنه وحاضره ومستقبله ، ولكننا نشير إلى أن الله - وهو أعلم بمصلحة العباد - وضع لنا تشريعاً متفوقاً فيه فائدتنا وصلاحنا ، وعرّنا وكرامتنا وخيرنا ومجدنا ودنيا طيبة تمهد لأخرى طيبة فيها خمر طيبة بل فيها أنهار من الخمر .

"...وَأَنْهَرُ مِّنْ خَمْرٍ لَّدُنِّي لِلشَّارِبِينَ....." (محمد: ١٥)

وهذه الخمر لا تذهب العقل ولا تزرى بصاحبها "لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ

عَنْهَا يُنزَفُونَ" (الصفات: ٤٧)

أليس فى تشريعنا الإلهى خير كثير ؟

الصبر على البلاء

عن خباب بن الأرت - رضى الله عنه - قال :

" شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد برده فى ظل الكعبة
فقلنا :- ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل
فيحفر له فى الأرض فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ،
ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه وما يصدّه ذلك عن دينه .

والله ليتمنّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت
لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون "

" أخرجه البخارى ، و أبو داود "

.....
.....
.....
بأتى الحدث أو موضوع القصة من خلال إطارين ، قصة كبرى ، وهى شكوى

الصحابة مما يعانونه ، ويسألون الرسول - صلى الله عليه وسلم - النصرة والدماء .

ثم قصة صغرى وهى ما كان يجرى لبعض المؤمنين من تعذيب يصل إلى

حدّ النشر بالمنشار والتمشيط بأمشاط الحديد .

القصة الكبرى إطار أكبر لما يعانونه المؤمنون فى كل زمان ومكان من أجل

إيمانهم وعقيدتهم وضرورة أن يتحملوا ويصبروا حتى يأتهم نصر الله ويتم دينه .

و القصة الصغرى نموذج لما كان يحدث قبل الدعوة الإسلامية ، فقد

كان المؤمنون يتعرضون لأهوال تذهب بحياتهم بعد تعذيب بشع وحشى ، ولكنهم

ظلوا على مبادئهم ومعتقداتهم لا يتغيرون . وهو ما ينبغى أن يكون عليه المسلمون

فى صدر الدعوة . لقد ذهبوا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد برده فى

الكعبة ، أى جعل البردة تحت رأسه بمنابذة وسادة ، والبردة هى الشملة المخططة .

وقبل إنها كساء أسود مربع فيه اصفرار تلبسه الأعراب ، جمعها بُرد ، وطلبوا منه أن يستنصر لهم أي يطلب النصر ويدعولهم الله بالانتصار على من يعذبونهم ويضطهدونهم.. فيذكرهم بالسابقين ممن تحملوا الاضطهاد والعذاب ، وأن ذلك ما كان يصددهم أي ما يمنعهم العذاب بالمنشار وأمشاط الحديد عن دينهم وعقيدتهم .

ثم كانت هنالك بشارة من الرسول – صلى الله عليه وسلم – مصحوبة بالقسم المؤكد عن حتمية انتصار الإسلام وسيادة الأمن في أرجاء الجزيرة العربية .

"والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون" ويقصد بقوله : " هذا الأمر " الإسلام ، أي ليتمن الله الإسلام .

والشخصية في القصة شخصية عامة لا نلمح إلا جانباً من ملامحها على أساس أن الشخصية معروفة سلفاً ، فهناك شخصية الصحابي الجليل " خباب بن الأرت " رضى الله عنه – وهو واحد من الصحابة الذين سألوا الرسول – صلى الله عليه وسلم النصر والدعاء .. ثم شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم – نفسه الذى يتوجه إليه الصحابة بالطلب أو الرجاء ، ونراه فى تواضعه وهو يتوسد برده ويضعها تحت رأسه بوصفها وسادة . وهو يجيب على أصحابه داعياً إياهم إلى الصبر على البلاء .. وهناك شخصيات مبهمة لرجال ينشرون بالمناشيرو ويمشطون بأمشاط الحديد التى تفصل اللحم عن العظم ، ومع ذلك يصيرون على البلاء ولا تتزعزع ثقتهم فى الله . ولا إيمانهم به .

إن هذه الشخصيات المبهمة لأولئك الرجال . هى شخصيات المعذبين فى العصور كافة والأماكن المختلفة .

و يظهر عنصر المكان هنا مشيراً إلى أهميته وقديسته أو إلى اتساعه وامتداده ، فالكعبة التى ينام الرسول – صلى الله عليه وسلم – بجوارها تمثل رمزا

وبيتاً ولها قيمتها و مكانتها فى الإسلام منذ بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حتى عصر البعثة المحمدية الخاتمة .

كما أنها تشير إلى ارتباط الحدث القصصى وهو المعاناة فى سبيل العقيدة برمز العقيدة وهو الكعبة . وفى ذكر المسافة بين صنعاء وحضرموت إشارة أخرى إلى اتساع المكان وامتداده ، فانتصار الإسلام ينشر الأمن فى كل الأرجاء ، وإذا عرفنا أن صنعاء وحضرموت من أبعد الأماكن فى ذلك الوقت عن مركز الدعوة وهو الكعبة أو مكة المكرمة ؛ فإن بشارة الرسول - صلى الله عليه وسلم - صدقت ، ووصل الإسلام إلى أبعد الأماكن بما فيها صنعاء وحضرموت ، ولكل منهما حضوره التاريخى والحضارى فصنعاء رمز الحكمة اليمانية ، وحضرموت هى منبع الدعاء الذين نقلوا الإسلام إلى أبعد مكان على ظهر الأرض كما نرى فى نشرهم له بإندونيسيا وما حولها من الجزر والأماكن .

أما ختام القصة ، فهو البشارة النبوية بانتصار الإسلام ، وقد جاءت مؤكدة بالقسم واللام ونون التوكيد الثقيلة ، وقد تحققت بفضل الله وانتصر الإسلام ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

تكشف القصة فى أول معطياتها عن جانب الضعف الإنسانى أو البشرى فى مقاومته للشرّ ، وتعرض الإنسان لهزات نفسية عاتية حين تكون قوة أعداء الدين أكبر من قدرته على التحمّل والمقاومة ، وحينئذ يأتى المثال على الصمود والصبر من خلال ما تعرض له السابقون من المؤمنين فى الأمم الأخرى . . حيث كان الواحد منهم يوضع فى حفرة تستوعب معظم جسده ثم يؤتى بمنشار فينشر من رأسه فيكون نصفين ، ثم يمشط بأمشاط الحديد لتفصل لحمه عن عظمه ، ولكن ذلك كله لا يزعجه قيد أنمله عن إيمانه وعقيدته .

وقد وردت قصة أصحاب الأخدود فى سورة البروج لتقدم نموذجاً حياً للصبر على النلاء .

قَتِلْ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٦٠﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ﴿٦١﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦٢﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦٤﴾
(البروج: ٤-٨)

كما وردت آيات كثيرة تحت على الصبر وتوضيح طبيعته وكيفية ثوابه ، منها قوله تعالى : "فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ (الأحقاف: ٢٥) و قوله تعالى : وَلَتَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (النحل: ٩٦)

و قوله تعالى : "فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٤١﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٤٢﴾ وَتَرَاهُ قَرِيبًا" (المعارج: ٥-٧) و قوله تعالى :

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا (ال عمران: ٢٠٠) و قوله تعالى : "..... قَالُوا رَبَّنَا أفرغ علينا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ" (البقرة: ٢٥٠)

و تعطينا القصة نموذجاً للتواضع الإنسانى فى أنضج صوره ، وهو تواضع الرسول - صلى الله عليه وسلم - فمع أنه رسول مصطفى من عند الله ، يخصه بالوحي والإلهام وهو خاتم الرسل والأنبياء ، فإنه لا يجد غضاضة أن يصنع من برده وساداً أو وسادة يضعها تحت رأسه وهو ينام بجوار الكعبة فى بساطة متناهية ، وهو الذى علمنا أن " من تواضع لله رفعه " ، فأين هذا من استعلاء بعض الناس فى زمننا استعلاء مردولاً ، وتكبرهم بغير حق ، وخيلائهم التى يتصورون أنها تجعلهم من طينة أخرى غير طينة البشر ، ونسوا أو تناسوا أن لقمان عليه السلام يوصى ابنه بالتواضع و عدم التكبر .

"وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ" (لقمان: ١٨)

و هذا إدراك من لقمان عليه السلام لقيمة التواضع والبساطة فى حياة الناس .

إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقدم لنا القدوة الحسنة فى مجال التواضع والبساطة والاعتدال من الناس ، والصبر على البلاء ، وهو الذى يستعين بالتاريخ أو المثال التاريخى ليفتح أصحابه بضرورة الصبر ، وعدم استعجال النتائج ، لأن الاستعجال يفسد المقدمات ويؤدى إلى نتائج غير طيبة ، فالصبر الجميل هو الطريق الحقيقى للحصاد المثمر والنتائج الباهرة .

و عملاً بإشاعة الأمل والبشارة فى النفوس ، فإن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وقد بعثه الله مبشراً و نذيراً ، يبشر قومه الذين يصبرون على البلاء ولا يستعجلون النتائج قبل موعدها ، بانتصار الإسلام والتمكين له فى الأرض ، وتجاوز كيد الأعداء و تخطيط المتربصين " والله ليتمّن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله ، والذئب على غنمه .. " .

وقد تحققت البشارة و صار الأمل حقيقة . و أتم الله نوره ، ودخل الناس فى

دين الله أفواجا ، و نزل قوله تعالى :

"...الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...." (المائدة: ٣)

وهكذا فإن المؤمن صاحب العقيدة لا يد أن يتحمل فى سبيل عقيدته وإيمانه ويصبر على البلاء صبراً جميلاً ، وليكن له فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قدوة حسنة ، وفى السابقين من أهل العقائد الذين امتحنوا فى إيمانهم نماذج للصبر على البلاء وعدم الاستعجال فى قطف الثمار .. وليكن أملمهم فى الله كبيراً ، فهو القادر على تحقيق غاياتهم ، و نصرهم على أعدائهم .

الابتلاء و الرحمة

عن عائشة - رضی اللہ عنہا - أنها قالت لرسول اللہ - صلى

اللہ علیہ وسلم :

- يارسول اللہ ، ما أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من يوم أحد ؟

- قال :

- لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذْ عرضت

نفسى على ابن عبد ياليل فلم يُجيبنى ، فانطلقت وأنا مهموم على

وجهى ، فلما كنت بموضع كذا رفعت رأسى فإذا أنا قد أطلتني سحابة ،

فنظرت فإذا فيها جبريل فنادانى ، فقال :

- إن اللّٰه عزوجل قد سمع قول قومك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملكَ

الجبال لتأمره بما شئت فيهم .

- فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ، ثم قال :

- يا محمد ، إن اللّٰه عزوجل قد سمع قول قومك ، وأنا ملك الجبال ، وقد

بعثنى ريك إليك لتأمرنى بأمرك بأمرك فيما شئت ، إن شئت أطبق

عليهم الأخشيين .

- فقال رسول اللّٰه - صلى اللّٰه عليه وسلم :-

- أرجو أن يخرج اللّٰه من أصلابهم من يعبد اللّٰه لا شريك له "

" أخرجه البخارى و مسلم وابن حبان وابن أبى الدنيا "

يقوم الحدث فى القصة على المفاضلة بين يوم أحد الذى كان شديداً أو أشد الأيام

فى حياة الرسول - صلى اللّٰه عليه وسلم - وبين يوم آخر ذكره لعائشة وكان أشدّ

من يوم أحد ، وهو دعوة ابن عبد ياليل الذين رفضوا الاستجابة ..

اليوم الأول وهو يوم أحد انهزم فيه المسلمون أمام قريش بعد أن أوشكوا على قطف ثمار نصر كاسح ، ولكن مخالفة المقاتلين للأوامر شجعت المشركين على الكرّ على المسلمين وإعمال السيف فيهم وهم مشغولون بجمع الغنائم ، لولا صمود الرسول - صلى الله عليه وسلم - ومجموعة من الصحابة ، وثباتهم فى وجه الهجوم الذى أوقع بالمسلمين خسائر كبيرة وحول انتصارهم إلى هزيمة .

أما اليوم الآخر فهو اليوم الذى دعا فيه النبى ابن عبد ياليل إلى الدخول فى الإسلام ، ولكنهم لم يستجيبوا وكان يأمل فيهم كثيراً ، ولكنه عاد كاسفاً حزيناً يحمل من الهموم ما جعله يمضى على وجهه فى الطريق على هيئته هذه . وهو معنى قوله : " عرضت نفسى على ابن عبد ياليل فلم يجبنى " ، أى عرضت الإسلام على قوم عبد ياليل ، فلم يؤمنوا به ولم يستجيبوا لى . ويفسر نتيجة ذلك بقوله " فانطلقت على وجهى " ، أى سرت فى الطريق وأنا ملئء بالهموم والأحزان بسبب عدم إسلامهم .

و شخصيات القصة معروفة لقارىء الحديث أو سامعه ، فها هى عائشة زوج الرسول - صلى الله عليه وسلم ، وابنة صديقه الأول أبى بكر - رضى الله عنه - ثم نرى شخصية النبى - صلى الله عليه وسلم - يرد على كلامها ويصف حالته وابن عبد ياليل لم يستجيبوا له ، وشخصية جبريل عليه السلام التى ظهرت فى السحابة لتشدّ من أزره وتبلغه بحفظ الله له ورعايته الدائمة ، ثم شخصية ملك الجبال ، الذى ينفذ أوامر ربه كى ينفذ انتقامه من المشركين لو أرادوا النبى - صلى الله عليه وسلم .

و نلاحظ أن الحوار عنصر مهم من عناصر القصة ، لأنه يكشف عما يشغل الشخصية القصصية أو يبين وظيقتها ، فهو يكشف عما تراه عائشة رضى الله عنها من أن يوم أحد أشد الأيام على الرسول صلى الله عليه وسلم . ولكنه يجيبها أن

يوماً آخر كان أشد من يوم أحد حيث كان يودّ أن يسلم ابن عبد باليل ولكنهم حدلوه ورفضوا الاستجابة له ثم نجد جبريل عليه السلام وملك الجبال يمتثلان للمهمة المكلف بها كل منهما ويبلغان الرسول - صلى الله عليه وسلم بما كلفا به وهو الانتقام لو أراد .

وبناء القصة يقوم على الكشف عن شدّة وقع يوم صعب على النبي الكريم .
و كانت عائشة تظن أنه يوم أحد الذي انهزم فيه المسلمون ، و تحمّل النبي مع الصحابة شدّته و تأثيره ، و لكننا نجد أن يوم ابن عبد باليل كان أشدّ ، فقد كانت قسوته على النبي صلى الله عليه وسلم محرّكاً لجبريل و ملك الجبال ليقتصاً من هؤلاء القوم " إن شئت أطبق عليهم الأخشبين " والأخشبيان : جبلان فى مكة أولهما أبو قبيس ، و الآخر ما يقابله .

والمعنى إن أردت الانتقام فإنه يمكن إهلاكهم و إفنائهم تحت الجبلين العظيمين اللذين إذا اجتمعا سحقا من تحتها ، و أطبقتهما : جمعتهما فلا ينجو منهم أحد .

وكان قارىء الحديث أو المستمع إليه يتصوّر أن تكون هذه هى النتيجة الطبيعية لقوم عبدالليل ، ولكن ختام القصة يأتى مخالفاً لذلك ، كاشفاً عن خلق كريم للرسول صلى الله عليه وسلم - يختص به وحده و يتميز ، وهو يتمثل فى عدم رغبته فى الانتقام من القوم الذى حدلوه ورتّوه خائباً ، ولكنه يتمنى أن يخرج الله من بين ظهرائهم من يعبد الله لا شريك له .. وهو ما قصده بالإشارة إلى الأصلاب : جمع صلب ، وهو الظهر .

ولا ريب أن هذه الخاتمة تتسق مع منهج الإسلام فى الدعوة و الأمل ، فمهما لقى الدعاة من المتاعب و الصدود ينبغى عليهم أن يكونوا أكثر تسامحاً و مودة و إيماناً بالنمستقبل الذى يفتح الله فيه أبواب الأمل و الرحمة أمام الآخرين .

تعطينا القصة النبوية صورة لما يعانیه الأنبياء والرسل فى صراعهم مع
الدينويين الذين يبتعدون عن الإيمان والتوحيد ، فقد كان يوم أحد شديد الوقع
والقسوة على المسلمين وقائدهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأنهم كانوا قاب
قوسين أو أدنى من النصر الكاسح على المشركين ، ولكنهم خالفوا أوامر قائدهم
وانشغلوا بجمع الغنائم فكرّ عليهم المشركون وهزموهم وأنزلوا بهم خسائر فادحة ،
ولكن رحمة الله سبحانه تجلّت فى تثبيت النبى - صلى الله عليه وسلم - ومجموعة
من الصحابة معه ، مما شجع المسلمين الذين انفرط عقدهم على التجمع حولهم ،
والصمود فى وجه المشركين ، وحفظ بيضة الإسلام التى كادت تنسحق تماماً
ويقتهى ذكرها .

إن ابتلاء الأنبياء مسألة أساسية ، وابتلاء المؤمنين أيضاً ، لأنه للتحميم
والاختبار ومعرفة الإيمان الصادق من غيره .

قال تعالى : "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ
وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوا أَحْبَارَكُمُ" (محمد ٢١)

و قال تعالى : "لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ
مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً
وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِن عَزْمِ الْأُمُورِ" (آل عمران : ١٨٦)

و يشير الحديث إلى أن ابتلاء الأنبياء والرسل ، والمؤمنين أيضاً ، تصحبه
رحمة الله سبحانه ، ودعمه الإلهى حين تشتد المحن وتصل إلى حد الذروة ، فقد
رأينا جبريل وملك الجبال يقدمان دعمهما للنبى - صلى الله عليه وسلم - ويثبتان
قلبه تعويضاً عما لحق به من حزن وانكسار لدى قوم عبد ياليل .

ولا ريب أن القصة النبوية تكشف لنا عن منهج مهم ليدى الأنبياء والرسل
والدعاة وهو ضرورة الصبر أمام الشدائد والمحن ، فلولا صبر النبى صلى الله عليه

وسلم - يوم أحد مع بعض أصحابه لا نسحق المسلمون ولما عمدت لهم قائمة ، ولولا صبره - صلى الله عليه وسلم - يوم عدياليل ما وجد هذا الدعم الإلهي غير المحدود .

بالطبع فإن البشر يحرنون ويتأثرون نتيجة للإخفاقات أو عدم تحقيق الآمال

ولكن الإيمان بالله ووصل حبله دائماً ، يجنب الدعاة وغيرهم مزالق البأس والإحباط .

"...إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ" (يوسف : ٨٧)

ونرى فى هذا الحديث الشريف صورة لما ينبغى أن يكون عليه الداعية

المسلم اقتداء بمنهج الرسول - صلى الله عليه وسلم - فهو الرؤوف الرحيم كما وصفه

ربه جل وعلا "....بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" (التوبة : ١١٨)

وهولين الجانب الودود "فِيمَا رَحِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ

فَطَّاءً غَلِيظًا لَّقَلْبُ لَانَفُضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ

وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ" (ال عمران : ١٥٩)

وهو القائل : "أنا رحمة مهداة ؛ وهو الذى كان يردد :

"اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون"

وكان موقفه من أهله الذين آذوه وأخرجوه من مكة وحاربوه فى مهجره ،

حين انتصر عليهم وأصبحت رقابهم فى قبضته :

" ما تظنون أنى فاعل بكم . قالوا خيراً . أخ كريم و ابن أخ كريم قال

اذهبوا فأنتم الطلقاء "

هذا المنهج هو الذى أشارت إليه القصة التى بين أيدينا ، فقد كان

الهلاك قريباً منهم بإطباق الأخشبين عليهم ، ولكن الرؤوف الرحيم - صلى الله عليه

وسلم - يقول : " أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله لا شريك له

"حقاً ، إن الغاية الكبرى للإسلام هى الإيمان بالله الواحد الأحد الذى لا شريك له

..وليست الانتقام أو العقاب . فقد أرسل الله رسوله رحمة للعالمين .

سبق عكاشة

عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عُرضت على الأمم ، فرأيتُ النّبىّ و معه الرهيط ، و النّبىّ و معه الرّجلُ والرّجلان و النّبىّ ليس معه أحد ، إذ رفع لى سواد عظيم ، فظننتُ أنّهم أمتى ، فقبيل لى :

- هذا موسى و قومه ، و لكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقبيل لى :

- هذه أمتك و معهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب " ثم نهض فدخل منزله ، فخاض الناس فى أولئك الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب .

- قال بعضهم : الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

- قال بعضهم : فعلهم الذين ولدوا فى الإسلام فلم يشركوا بالله .

- فخرج عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال :

- ما الذى تخوضون فيه ؟

- فأخبروه ، فقال :

- هم الذين لا يَرْقُونَ ، ولا يَسْتَرْقُونَ ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون .

- فقام عكاشة بن محسن ، فقال :

- ادع الله أن يجعلنى منهم .

- فقال : أنت منهم .

- ثم قام رجل آخر فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم .

- فقال :سبقك بها عكاشة "

"أخرجه البخارى و مسلم و أحمد و الترمذى و الدارمى و ابن حبان و البغوى"

.....

أول هذه العناصر يتبدى فى السرد أو الحكى أو الحدث الذى يرويه الرسول - صلى الله عليه وسلم - من خلال الرؤيا ، ورؤيا الأنبياء حق ، أو من خلال رحلة الإسراء والمعراج وهو استعراض أمم السابقين مع الأنبياء ، كل نبى مع أمته . فهناك أمة صغيرة أقل من عشرة أفراد مع نبيها ، وهناك رجل أو رجلان مع نبى ، وهو ما عبر عنه النبي - صلى الله عليه وسلم - بالرهيط ، والرَّهِيْطُ : تصغير رَهْط ، وهم الجماعة أقل من العشرة .

وهناك نبى ليس معه أحد . وهناك سواد عظيم أى جمع عظيم من عامة الناس مع نبى الله موسى عليه السلام ، وقد ظنهم الرسول صلى الله عليه وسلم أمته ، فإذا به يرى جمعا عظيما فى الأفق ، ويقال له : إن سبعين ألفاً من أمته سيدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .

و حين يستمع الناس إلى ما قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم ، فإنهم يحاولون تفسيره بعد أن نهض ودخل منزله ، وهو معنى قوله : " خاض الناس " ؛ أى تكلم الناس فيما قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتحدثوا عنهم ، وعلقوا عليه .

فمنهم من يرى أن السبعين ألفاً من الصحابة ومنهم من يرى أنهم الذين ولدوا فى الإسلام ولم يشركوا بالله شيئاً ، ولكن الرسول - صلى الله عليه وسلم - يخرج عليهم ، ويعلم بما دار بينهم ، ويخبرهم أن الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب هم الذين لا يدعون بدعاء الوثنية ، وهو معنى قوله : " لا يرقون " ، أى

لا يدعون دعاءً وثنياً للتعود من الشرّ. ولا يطلبون دفع الشرّ بمثل هذا الدعاء ، كما ورد في قوله : " لا يسترقون " ؛ أى لا يطلبون الرقية بعناها الوثنى المخالف للإسلام. وفي قوله : " لا يتطيرون " ؛ أى لا يتشاءمون . ولكنهم الذين يتوكلون على الله مع الأخذ بالأسباب الممكنة .

وهنا يطلب رجل أن يدعوله الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيعتذر بلطف ورقة قائلاً : سبقك بها عكاشة ، أى إن عكاشة بن محصن قد سبقه فى طلب الدعوة فاستجيب له .

و تعتمد القصة على عنصر الحوار القائم على السؤال وإجابته ، أو الحوار المترادف تفسيراً لأمر غير واضح ، أو الحوار الذى يجرى طلباً لعروف أو تحقيقاً لرغبة وقد رأينا الرسول - صلى الله عليه وسلم يسأل الملائكة حول أسماء بعض الأمم العظيمة العدد حين ظن أنها أمته فأخبر أنها أمة موسى عليه السلام ، أما أمته فقد طلب منه النظر إلى الأفق ليراها جمعاً كبيراً ، يثاب منه سبعون ألفاً بدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب .

و حين يخرج إليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتحول الحوار إلى توضيح وبيان لهؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فهم المتوكلون على الله بعد الأخذ بالأسباب الممكنة ، دون أن يدعوا دعاء الجاهلية أو يطلبوا هذا الدعاء الوثنى .

ثم يتطور الحوار لتحقيق الرغبة بدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب من بعض الصحابة حيث يسبق عكاشة بن محصن بطلب الدعاء لتتحقق له هذه الرغبة .

و بناء القصة يعتمد على التدرج منذ عرض الأمم على الرسول - صلى الله عليه وسلم - مروراً بحديث الصحابة حول طبيعة الداخلين الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم يأتي التمهيد لنهاية القصة ببيان طبيعة هؤلاء بأنهم الذين لا يطلبون الرقية المنهى عنها ولا يتشاءمون ، ولكنهم يتوكلون على ربهم حق التوكل ، ثم نصل إلى ختام القصة ببيان سبق عكاشة في الفوز بالدعوة النبوية لدخول الجنة بغير حساب .

أول ما تعطينا القصة من معطيات ؛ الإشارة الواضحة إلى مكانة الرسول - صلى الله عليه وسلم - المتميزة بين الرسل والأنبياء ، و مكانة الأمة الإسلامية بين أمم الأرض . فالرسول - صلى الله عليه وسلم - هو آخر الرسل وخاتم الأنبياء وصاحب الرسالة الشاملة الكاملة ، و أمة الإسلام هي الأمة التي يدخل الجنة منها - وهي الجمع العظيم . سبعون ألفاً بغير حساب ولا عذاب لأنهم لا يطلبون الرقية المنهى عنها ، ولا يتشاءمون بل يتوكلون على الله حق التوكل بالأخذ بالأسباب .

وقد وعد المسلمون المتقون هؤلاء بالجنة في كثير من الآيات الكريمة التي وردت بالقرآن الكريم .

قال تعالى : " وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ " (ق ٢١)

و قال تعالى : " وَيُؤَدِّجُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا هُمْ " (محمد : ٦)

و قال تعالى : " أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ

مَقِيلًا " (الفرقان : ٢٤)

ولا ريب أن التوكل على الله ، يعنى التسليم إليه في كل حال ، مع الأخذ بالأسباب الممكنة ، لأن عدم الأخذ بها يعنى التواكل ، وقد قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - لمن ضيع ناقته بعد أن دخل إلى الصلاة بحجة التوكل على الله :

" اعقلها و توكل "

فَعَقْلُ الناقَةِ أَى رِبطِها أَوْ تَقْييدِها حَتى لا تَضل هُو الأُخذ بالأَسباب
الممكنة ثم التوكّل على اللّهُ الذى يتكفل بحفظ الناقَةِ ..

وقد وردت الآيات الكريمة فى القرآن الكريم بهذا المعنى الذى يجعل المسلم
يتوكّل على ربّه فى كل الأحوال :

"إِنّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّى وَرَبّىكُمْ ؕ... " (هود : ٥٦)

"...وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ... " (الطلاق : ٣)

"...إِن الْحُكْمُ إِلاّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ " (يوسف : ٦٧)

"وَمَا لَنَا إِلاّ أَنْتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ؕ... " (إبراهيم : ١٢)

ومن هذا نفهم أن التوكّل على اللّهُ هو أساس الحياة فى المجتمع
الإسلامى ؛ أما التواكل فهو القعود عن العمل ، وعدم الأخذ بالأَسباب ، والسلبية
المرضية التى تكتفى بالكلام دون الفعل ، والقرآن الكريم يأمر العمل "وَقُلِ اعْمَلُوا
فَسِيرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ... " (التوبة : ١٠٥)

ومن معطيات القصة التنبية إلى خطورة الدعاء بمنطق الوثنية ، ومثله
التشاؤم فغير اللّهُ لا يملك للإنسان ضرراً ولا نفعاً ، وهو شرك وعودة إلى الجاهلية
الأولى .

أما التشاؤم فهو محرّم على المسلمين ، لأن المصائر والأعمار والأعمال
مقدورة بقدر اللّهُ ، ولا يملك الإنسان أن يغيّر من قدر اللّهُ ، وقد نعى الحق سبحانه
على الأقوام السابقة تطيّرهم وتشاؤمهم ...

"قَالُوا أَطَيَّرْنَا بِكَ وَبِئْسَ مَعَكُ... " (النمل : ٤٧)

وها هم قوم موسى :

"...وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ؕ... " (الأعراف : ١٣١)

وهاهم آخرون :
"قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا
عَذَابٌ أَلِيمٌ" (يسن : ١٨)

ومن المعطيات التي تقدمها القصة ضرورة المبادرة إلى الخيرات
واكتساب الحسنات ، فعكاشة بن محصن ، حينما رأى مصير الطيبين الذين دخلوا
الجنة بلا حساب ولا عذاب لأنهم لم يطلبوا الرقية بمفهوم الجاهلية ولم يعرفوا
التشاؤم والتطير ، بل توكّلوا على الله حق التوكّل وأخذوا بالأسباب الممكنة ؛
كانت مبادرته وسبقه إلى طلب الدعاء من النبي - صلى الله عليه وسلم ليكون مثل
هؤلاء الطيبين .. وعندما أدرك ذلك رجل آخر كان في صحبة الرسول صلى الله عليه
وسلم - كرر طلب عكاشة ، ولكن الأمر كان قد فاته وصارت مقولة - صلى الله
عليه وسلم - مثلاً يضرب فيمن يسبق إلى الخير ويطلبه فيفوز بثوابه .

الصدقة في غير موضعها

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال :

" قال رجل لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تُصَدِّقُ اللبلة على سارق !

فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها في يدى زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تُصَدِّقُ اللبلة على زانية !

فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج فوضعها في يد غنى ، فأصبحوا يتحدثون : تُصَدِّقُ اللبلة على غنى !

فأتى . فقيل له : أما صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقة و أما الزانية فلعلها تستعف عن زناها ، و أما الغنى فلعله أن يعتبر فينفق مما أعطاه الله ."

"أخرجه : البخارى و مسلم و أحمد و النسائى و البيهقى "

.....

يحمل الحديث الشريف عناصر القصة الناجحة المؤثرة من فكرة و بناء متسلسل وتشويق و غاية .

فالفكرة تتحدث عن صدقة يعتزم رجل أن يتصدق بها ، ولكنها تذهب إلى من لا يستحقها ، و يتحدث الناس بهذا الأمر الغريب ..

و يقوم البناء على تتابع الحدث ، حيث يتصدق الرجل على لصّ فى أول الأمر و عندما يعلم أنه تصدق على غير مستحق يحمد الله ، ثم يكرر التصدق ، فيتصدق على زانية و عندما يعلم أنها وقعت فى يد لا تستحق ، يحمد الله .

ويتصدق مرة ثالثة ، فتقع فى يد أحد الأغنياء الذين لا يستحقونها . وهو ما نفهمه من قوله : " وضعها فى يد سارق .. زانية .. غني " . أى سلم الصدقة إلى لص ، وهو لا يستحق الصدقة . ومثله الزانية والغنى فهم جميعاً لا يستحقون الصدقة .

ويتشوق الناس إلى معرفة خاتمة القصة ، فبعرفونها من خلال الوجه الآخر لتصدق الرجل على من لا يستحق ، ويتمثل هذا الوجه فى أن الصدقة قد تكون وسيلة دافعة للصّ كى يتوب عن السرقة ، والزانية كى تتعفف عن الزنا ، والغنى كى يبذل ماله فى سبيل الله . وهو ما يفهم من قوله : " يستعف " أى يتعفف ويتعد عن السرقة أو الزنا أو البخل . أو بالنسبة للغنى " فلعله أن يعتبر فينضق " يقصد أن يأخذ العبرة ممن وضع فى يده الصدقة ويتقذى به ويقوم مثله بالتصدق والإنفاق على المحتاجين والمستحقين للصدقات .

- و نجد فى القصة حواراً يدور بين الناس وبين بطل القصة أو شخصيتها الرئيسية وهو الرجل المتصدق ، حيث يتعجبون عند إخراج الصدقة لمن لا يستحق من وجهة نظرهم ولكنه يردّ عليهم - وكأنه يحدث نفسه - " اللهم لك الحمد لأتصدقن بصدقة " ويتكرر هذا الحوار مع الصدقات الثلاث . ثم يأتى أخيراً ، وكأنه يتساءل عن مصير صدقاته وهل وقعت فى يد من يستحق أم لا ؟ وتكون الإجابة بأنها مقبولة - إن شاء الله - وقد تكون سبباً فى توبة العاصى وحافزاً على الخير للغافل .

من خلال القصة نفهم أن الصدقة سلوك إسلامى نبيل له دوره الكبير فى بناء المجتمع الإسلامى ، والحق سبحانه وتعالى يسلك المتصدقين والمتصدقات فى سلك عباده الأخيار الذين وعدهم بالمغفرة والأجر العظيم :

"إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ
وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّاتِمِينَ
وَالصَّاتِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ
كَبِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا" (الأحزاب: ٢٥)

والصدقة مطلوبة علناً (مثل إخراج الزكاة) أو سراً مثل بقية الصدقات .

قال تعالى: "إِنْ تَبَدُّوا أَلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا
وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ" (البقرة: ٢٧١)

وإخراج الصدقة يعلم الإنسان الذوق ومراعاة شعور الآخرين "يَتَأَيَّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى" (البقرة: ٢٦٤)

والصدقات المفروضة تصرف في مصارفها المشروعة فتؤلف بين القلوب ،
وتؤتد المودة بين الناس ، وتخدم الدين بالدفاع عنه وبناء المجتمع المسلم .

و تعطينا القصة مفهوماً متقدماً للصدقة ومعناها ودلالاتها ، فهي
تعنى الخير، وهى وسيلته المتقدمة ، وتصب لصاحبها وفقاً لنيته وسلوكه ، حتى لو
وقعت فى يد من لا يستحقها فللمتصدق الأجر والثواب - إن شاء الله - مادامت
نيته هى الخير ، وسلوكه هو التزام بين المسلمين ، ورغبته مسالعة من توجه إليه .

وإذا كانت الصدقة توجه أولاً لأهل الصلاح ، فإن هذا لا يمنع أن توجه لمن
يرتجى صلاحهم وخيرهم ، فالإنسان دائماً يحمل بين جبينه عنصراً خيراً مهما بدا
شريراً وقاسياً فقد يتعفف اللص ، وتتوب الزانية ، وينفق البخيل ، ويزداد المنفق
الغنى إنفاقاً .

النعيم و الجحيم

عن أنس - رضى الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله

عليه وسلم :-

" يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة ، فيُصبغُ في النار صبغة

ثم يقال :

- يا ابن آدم ، هل رأيت خيراً قط؟

- هل مرّ بك نعيمٌ قط؟

- فيقول :

- لا ، والله ، ياربّ؟

- ويؤتى بأشدّ الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة ، فيُصبغ صبغة في

الجنة ، فيقال له : يا ابن آدم ، هل رأيت بؤساً قط؟

- فيقول : لا ، والله ، ما مرّ بي بؤس قط ، ولا رأيت شدة قط ."

"أخرجه مسلم"

.....
نلاحظ أن السرد أو الحكى في القصة يأتي بصيغة المبنى

للمجهول : " يؤتى بأنعم أهل الدنيا : ويقصد بهم الذين عاشوا في نعيم

الدنيا كما لم يعش غيرهم واستمتعوا بنعيمها كما لم يستمتع غيرهم . " و يؤتى

بأشدّ الناس بؤساً في الدنيا ... " أي أشدّهم فقراً ومعاناة ، ليقدّم لنا الحدث

الذى يدور حول أهل الجنة و أهل النار ، فالذى يقوم بالإتيان مجهول ، ولكننا نعرفه

من السياق وهو الملائكة الذين يوكلون بالجنة و النار ، وأنعم أهل الدنيا وأشدّهم

بؤساً ، مطلق شخصيات منعمة أو بائسة ، عاشت في نعيم الدنيا فلم تشعر

بالجؤس أبدأ ؛ أو عاشت هى الدؤس فلم تدق طعم النعيم قط ، ولكن وضع كل من هؤلاء وأولاء موضع الآخر فى الجنة أو النار ، يجعله لا يشعر بما عاشه فى الدنيا أبدأ . وهو ما يفهم من قوله : " يصبغ فى النار " أى يغمس فيها ليدوق العذاب . ومن قوله : " فيُصبغ صبغة فى الجنة " أى يوضع فى الجنة ليعض الوقت ليدوق حلاوتها و نعيمها .

المنعم ينسى أنه ذاق النعيم بسبب ما داقه فى النار كما نرى فى التساؤل : " هل مرّ بك نعيم قطّ " أى هل ذقت نعيماً من قبل . ، والبائس فى الدنيا ينسى بؤسه بمجرد أن يذوق طعم الجنة كما يقال له : " هل مرّ بك شدة قط ؟ " أى هل رأيت شدة و معاناة و تعباً فى الدنيا من قبل ؟ " .. وهذه القاعدة تحكمها عملية الاتصال باللّهُ و الإخلاص له من عدمه ، فالذى يعيش على صلة باللّهُ و إخلاص له و قيام بحقوقه يدخل الجنة ولو كان بائساً فى الدنيا ، فقيراً معدماً ، و من انقطعت صلته باللّهُ ولم يخلص له دخل النار ولو كان غنيا مرفهاً و منعماً .. المعيار الذى نستخلصه من القصة هنا هو الإيمان باللّهُ .. فمن يملك الإيمان محظوظ ، ولو كان فقيراً ، و من يفقد الإيمان تعيس ولو كان غنياً .

إن ختام القصة يتضح فى سياق المنعم و قصة البائس .

الأول يقول : ما مرى نعيم قط لأنه شهد العذاب

و الآخر يقول : ما مرى بؤس قط لأنه شهد النعيم .

معطيات القصة :

من يتأمل القصة جيداً يدرك عدالة رب الناس المطلقة ، فهو الذى قال :
"فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
شَرًّا يَرَهُ" (الزلزلة: ٧-٨)

لا مكان عنده لحالة الإنسان من حيث الغنى أو الفقر ، أو الأصل
أو الحساب أو النسب ، أو النعيم أو الفقر ..

الأصل فى العدالة الإلهية هو الإيمان الذى يصدّقه العمل ، فمن عمل صالحاً
وخيراً وإحساناً له مكانة فى الجنة ولو عاش فى أحط دركات البؤس والشقاء
والمعاناة ومن عمل عملاً غير صالح ، ولم يلتزم بالعقيدة و أشاع الشرّ فى المجتمع كان
مصيره إلى العذاب الذى ينسبه كل ما استمتع به فى الدنيا من نعيم ورفاهية .

قال تعالى : "يَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ
فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ" (البقرة: ٨١) .

و يتحدث القرآن الكريم عن المشركين و الكفار الذين قطعوا
صلاتهم بالله : ".... وَأُولَٰئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ" (ال عمران: ١٠)

و يقدم لنا القرآن الكريم مفارقة دالة حين يذكر أهل الجنة أصحاب النار

بما كان بينهما فى الدنيا من موعدة إلهية تحققت و صدقت :

"وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا
رَبُّنَا حَقًّا" (الأعراف: ٤٤)

و يؤكد القرآن الكريم على مصير أهل الخير والإيمان "إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ فِي جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ" (البورج: ١١)

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ" (الطور: ١٧)

"إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ
مُقْتَدِرٍ" (القر ٥٤-٥٥)

و تعطينا القصة دلالة واضحة على أن المرّفين في الدنيا لا يعنى أنهم مرفهون في الآخرة ، وأن البائسين في الدنيا لا يعنى أنهم بائسون في الآخرة ، فالنعيم في الآخرة مربوط بعمل صاحبه و مطابقتة لإيمانه ..

وهو ما ينفي وهم بعض الناس أن النعم في الدنيا هو النعم في الآخرة أو أن الشقى في الدنيا هو الشقى في الآخرة .. هذا الوهم ينفية و يدحضه تنعم البائسين في الدنيا بنعيم الآخرة ، و شقاء المنعمين في الدنيا بعذاب الآخرة .. ومناطق النعيم والجحيم في كل الأحوال هو الإيمان والإخلاص .. فمن كان لديه إيمان وإخلاص تنعم في الآخرة ولو كان شقيا في الدنيا ، ومن افتقد الإيمان والإخلاص في الدنيا تعذب في الآخرة ولو تنعم في الدنيا .

رحمة الله

عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال :
" قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بسبى . فإذا امرأة من السبى
تسعى إذ وجدت صبيّاً فى السبى أخذته فالزقته ببطنها ، فأرضعته ، فقال رسول
الله - صلى الله عليه وسلم :-

" أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟ "

قلنا : لا ، والله .

فقال : لله أرحم بعباده من هذه بولدها "

" أخرجه البخارى ومسلم والبخارى والطبرانى .. "

.....

تبدأ القصة بامرأة تبحث عن ولدها المفقود ضمن الأسرى : " السبى
" أي الذين أسرهم المسلمون ، وحين تعثر عليه فإنها تحتضنه وترضعه رحمة به
ولهفة عليه .

ومن خلال منظر هذه المرأة المتلهفة على طفلها لإرضاعه وإشباعه بعد أن
افتقدته لبعض الوقت ضمن الأسرى ، وهو ما عبر عنه الحديث الشريف
بقوله : " تسعى " أي تسير مسرعة بحثاً عن وليدها الذى تفتقده ، نرى الرسول -
صلى الله عليه وسلم - يحاور أصحابه عن طريق السؤال والجواب ، فيطرح عليهم
سؤالاً إجابته بالنفى يتضمن أمراً مستحيلاً أو شبه مستحيل : هل يمكن لهذه المرأة
أن تلقى بولدها فى النار؟ أو كما ورد فى قوله : " أترون؟ " أي أتظنون أنها
تطرح ولدها فى النار؟

والغاية من السؤال كما نرى بيان مدى حب الأم لابنها ولهفتها عليه ورحمتها..ومن ثم تبدأ المقارنة بين رحمة هذه الأم بابنها ورحمة الله جل وعلا بعباده ، وتكون رحمة الله بعباده فوق رحمة الأم بابنها على أهمية هذه الرحمة وارتباطها بغريزة الأمومة و عاطفتها.. إن رحمة الله بلا حدود .

تعملينا القصة صورة من صور رحمة الأم بابنها ، فالأم فى الإنسان والحيوان ترتبط بابنها ارتباطاً طبيعياً وفطرياً ، فلا يوجد من الكائنات البشرية والحيوانية من هو أرحم بالابن وأكثر عطفاً عليه من الأم ، وهى الوحيدة التى تتحمل متاعب الولادة والرعاية بعد الولادة..وما أدراك ماهذه الرعاية ؟ إنها عناء بالليل والنهار.. سهر دائم ويقظة مستمرة للعناية بالوليد الذى لا يملك من أمره شيئاً ولا يستطيع النهوض بنفسه ..

وقد جعل الله سبحانه الرحمة فطرة طبيعية فى الأم تجاه ولدها ، ومهما تكاثرت عليها المفريات والمهبات فلن يمنعها مانع عن الاهتمام بولدها والعناية به والعطف عليه وتقديمه على نفسها .. وهذه الرحمة الفطرية المغروسة فى وجدان الأم المختلطة بكراتها الدموية وغريزتها الطبيعية لا توجد عند أحد آخر على ظهر الأرض إلا فى أم الإنسان و أم الحيوان ..

هذه الرحمة فى سخائها وكرمها وإغداقها توجد عند رب الناس رحمة أكثر سخاء منها وكرماً وإغداقاً ، إن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يخبرنا أن الله أرحم من الأم بأكثر مما يتخيل الناس ، وهو أرحم بعباده فوق ما يتصورون .. يكفى أن الأسماء الحسنى لله جل وعلا تضم الرحمن والرحيم .. وقد جاء كل منهما على صيغة المبالغة التى تعنى أن الرحمن والرحيم كثير الرحمة أو عظيم الرحمة أو لا يوجد من هو أرحم منه فى العالم ..

و لأمر ما جاءت سور القرآن الكريم كلها مبدوءة باسم الله الرحمن الرحيم عدا سورة واحدة هي سورة " التوبة " التي نزلت على الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى أثناء القتال ومع ذلك ورد فيها وصف الحق سبحانه وتعالى بالرحيم فى ثمانى مواضع ، ووصف الرسول صلى الله عليه وسلم فى موضع واحد بالرحيم .

كما ورد لفظ الرحمة و مشتقاتها فى القرآن الكريم فيما يقرب من أربعمائة موضع ، مما يدل على رحمة الله الواسعة التى لا حدود لها .
 قال تعالى : " مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ... " (فاطر: ٢)
 و قال تعالى : " ...وَرَحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ " (الزخرف: ٣٢)
 و قال تعالى : " هَذَا بَصِيرَةٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ " (الجاثية : ٢٠)

هذه الآيات وغيرها تشير إلى رحمة الله المنظورة فى الدنيا و المتوقعة فى الآخرة .. إنها رحمة مننّدة فى عطائه و هديه و نعمه و آلائه ، وهى بالتأكيد تفوق رحمة الأم بولدها .

و من معطيات القصة أن رحمة الله تفتح باب التوبة أمام الإنسان فلا يستسلم لليأس ، ولا يفرق فى الخطأ ، ولا ينجس فى الإثم .

قال تعالى :

" قُلْ يٰٓعِبَادِىَ الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰٓ اَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّٰهِ اِنَّ اللّٰهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا اِنَّهٗ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيْمُ " (الزمر: ٥٣)

و قال تعالى :

"...رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ " (غافر: ٧)

و قال تعالى :

"...فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (القرة ٦٤)

ولا شك أن رحمة الله بعباده والإلحاح عليها فى شتى المناسبات من خلال القرآن الكريم ؛ تعلمنا نحن المسلمين أن نكون رحماء فى تعاملنا وعلاقاتنا ، ومع بعضنا وأهلنا وندونا وزملائنا ومواطنينا .. إن الرحمة حين تشيع بين الناس تشفى كثيراً من الأمراض الإجتماعية المزمته ، وتساعد على حل كثير من العضلات الصعبة ، وتوطد أواصر العلاقات الإنسانية بين الأفراد وتشدها بروابط من المحبة والإخاء ..

وقد كتب الأديب الراحل " مصطفى لطفى المنفلوطى " فصلاً رائعاً عن الرحمة بدأه بقوله : " لو تراحم الناس ما كان بينهم مغبون ولا عار ولا جائع ، ولأقفرت الجفون من الدمامع .. " وهذا الكلام صحيح مائة بالمائة لأنه ينبثق من الإيمان برحمة الله لعباده التى يجب أن تشيع بينهم فى كل مكان وزمان .

الحب فى الله

عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى - صلى الله عليه وسلم قال : " إن رجلاً زار أخاه فى قرية أخرى . فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً ، فلما أتى عليه قال :

- أين تريد ؟
- قال : أريد أخاً فى هذه القرية .
- قال : هل لك من نعمة تربها عليه ؟
- قال : لا .. غير أنى أحببته فى الله تعالى .
- قال : فإنى رسول الله إليك ، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه "
- " أخرجہ : مسلم وأحمد "

.....

تعتمد هذه القصة على السرد أو الحكى بالإضافة إلى الحوار والشخصية .

ونلاحظ أن السرد هنا يعتمد فى مجمله على الفعل الماضى : زار - أرصد - أتى - أحب ، وذلك لتوكيد الغاية من القصة على أساس حدوث الموضوع القصصى ، وهو ذهاب رجل إلى رجل آخر يحبه فى الله تعالى .

و الرجل هنا بلا ملامح خارجية أو داخلية اللهم إلا رغبته الخالصة والصادقة فى الذهاب إلى صاحبه من أجل الثواب الإلهى . وبالطبع ، فإن هذا الرجل نموذج شائع فى المجتمع الإسلامى ، حيث يحب الرجل أخاه فى الله دون غرض أو هوى ، وهو ما عبر عنه الحديث الشريف بقوله: " أخاً له " يقصد الأخوة فى الدين وليس الأخوة فى النسب .

وهو ما تكون نتيجته التى نراها فى ختام القصة على لسان الملك الذى أرصد الله تعالى فى طريقه ؛ أى جعل له ملكاً على مدرجته ، والدرجة هى الطريق وسميت

كذلك لأن الناس يدرجون عليها ويمشون : بأن الله يحب من يحب فيه ، أو بلفظه " بأن الله قد أحبك كما أحبته فيه " ..

وهذا ثواب يطمح إليه كل مسلم صادق الإيمان .

كما نلاحظ أن الحوار في هذه القصة يخدم تسلسل الموضوع ، ويكشف عن طبيعة الشخصية الرئيسية فيه ، " فلما أتى عليه " أى وصل إليه . راح الملك يسأل الرجل عن وجهته ، وعندما يجيب الرجل بأنه يريد أخاه المسلم فى هذه القرية يسأله : هل لك من نعمة تقوم بها وتسعى فى صلاحها .. وعبر عن النعمة بقوله: " ترتها " أى تقوم بها وتسعى فى صلاحها .

أى إن الملك يسأله عن الغاية من رحلته ، ويفترض مسبقاً أنها من أجل مصلحة أو أجل منفعة ، كما يفعل أغلب الناس فى كل زمان ومكان ، ولكن الرجل المسلم الذى يفهم العلاقة بين آسلم وأخيه على وجهها الصحيح يخبر الملك أنه لا يبغى مصلحة أو منفعة من أخيه المسلم الذى يزعم زيارته .. ولذا كان قوله : "أحبته فى الله " ! أى أحبته من أجل ثواب الله تعالى . إنه يجبه فى الله تعالى وكفى ، وبالطبع تكون المكافأة الإلهية أن الله يحبّه كما أحبه فيه .

أول ما نلاحظه فى القصة هو مفهوم الحب . فالحب هنا مقرون بثواب الله وطاعته ، إنه حبّ سام يفوق الحب الذى يصنعه المصلحة أو الغريزة . الحب فى المفهوم الإسلامى عملاء بلا حدود ولا قيود . فيه رغبة الخدمة الخالصة الصادقة للمجتمع الإسلامى على مستوى الفرد والجماعة . الحب هنا لا ينتظر مقابلاً من المحبوب ، وفى تطبيقه العملى يبتعد هذا الحب عن الإعلان عن نفسه ، أو طلب الشهرة أو الوجاهة .

إنه حبّ الزاهدين الذين يحبّون فى سمت و يعطون فى خفاء ، لأنهم ينتظرون ثوابهم من المحبوب الأعظم . وهو ثواب يفوق كل ما لدى البشر من ثواب . لقد اختص الله سبحانه بعض خلقه المؤمنين بحبه .

قال تعالى : "..... إِنَّ اللَّهَ مُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (المائدة: ١٣)

وقال تعالى : "..... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ" (المائدة : ٤٢)

وقال تعالى : "..... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ" (التوبة : ٧)

وقال تعالى : "..... وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ" (التوبة : ١٠٨)

وقال تعالى : "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ
صَفَا كَأَنَّهُمْ بُنَيِّنٌ مَرْصُوصٌ" (الصف : ٤٠)

و الحب في الله من أنبل أنواع الحب لأنه ، لا يرتبط بالمصالح الشخصية
أو الأغراض الدنيوية ، لذا فجزاء صاحبه هو الفوز بمحبة الله ، وأنعم بها من محبة .
ومن القصة ندرك دور الملائكة في التبشير بهذه المحبة . إنها تبشر المؤمنين
الذين يحبون في الله بما ينتظرهم من ثواب في الآخرة .

وقد وصف القرآن الكريم المؤمنين بأنهم أشد حبا لله ، والفارق بينهم و
بين المنافقين يتضح في قوله تعالى : "وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ
اللَّهِ أُنْدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعَذَابِ" (البقرة : ١٦٥)

فالمنافقون يحبون من جعلوهم أندادا لله ، أما المؤمنون فهم أشد حبا لله الذي
يعبدونه دون غيره ، ولا يدينون بالولاء لأحد سواه ، لذا استحقوا حب الله ورعايته .

"..... تُحِبُّهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ
تُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ
يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ" (المائدة : ٥٤)

محبة الله التي نفهمها من القصة ميدان كبير يتنافس فيه المتنافسون
لأنه عطاء بلا حدود ، ويدل بلا مقابل ، وكما فشئت هذه المحبة قوى المسلمون
وانتصروا في دنياهم وأخراهم .

قوموا إلى الجنة - ١

عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - قال :
بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بُسَيْسَةَ غَيْثاً يَنْظُرُ مَا صَنَعْتَهُ عِيرِ
أَبَى سَفْيَانَ ، فَجَاءَ وَمَا فِي الْبَيْتِ أَحَدٌ غَيْرِي ، وَغَيْرِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ .

قال : لا أدري ما استثنى بعض نسائه فحدثه الحديث .
" إن لنا طليبةً ، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا " فجعل رجال
يستأذنونهم في ظهرانهم في علو المدينة .
قال : لا ، إلا من كان ظهره حاضراً ."

فانطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه حتى سبقوا
المشركين إلى بدر ، وجاء المشركون ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :
" لا يتقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا أذنه " .
فدنا المشركون ، فقال : رسول الله - صلى الله عليه وسلم :
" قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض"
" حديث صحيح أخرجه أحمد وأخرون "

.....

هذه القصة النبوية تدور في إطار قى غزوة بدر ، وتقدم جانباً من
جوانبها وما أكثر الجوانب التى تحملها هذه الغزوة المباركة ، التى أحدثت تحولاً
خطيراً فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، حيث انتقأت بالدعوة من حال المطاردة
والهجرة ، والحصار والتأمر إلى حال المبادرة والدفاع ، وإثبات الذات والوجود ..

وفى السنة الثانية للهجرة ، و بدءاً من هذه الغزوة المنتصرة الطائفة ، صار للإسلام والمسلمين كيان يعترف به الأعداء والخصوم ، ويقرّبه الحلفاء والجيران ..

وأخذ هذا الكيان ينمو ويقوى ويتحول إلى رقم فى المعادلة السياسية والعسكرية على أرض الجزيرة العربية ..

لقد كان المسلمون قلة بالنسبة للمشركين ، جاء نبيهم - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، مهاجرين من مكة إلى المدينة ، يطاردهم المشركون ، ويقتفون أثرهم للقضاء عليهم ، ولكن الله أيدهم بأنصاره ، فاحتضنهم فى يثرب ، وأقاموا معاً المجتمع الإسلامى الأول ، حيث صار للإسلام مسجد ، وصار المسلمون يقيمون الصلاة بلا خوف ولا فزع ، ويمارسون شعائرهم فى النور والعلن ، بعد أن كانوا عرضة للمطاربة والملاحقة والأذى ..

وفى هذه القصة النبوية ، نرى بداية المواجهة بين المسلمين والمشركين ، حيث علم الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن قافلة لقريش يقودها أبوسفيان بن حرب زعيم المعسكر المعادى للإسلام آنئذ ، قادمة من الشام إلى مكة تحمل البضائع والطعام ..

و أذن الله للمسلمين أن يدافعوا عن دينهم ويؤمّلوا المشركين ، حتى يتوقفوا عن إيذاء المسلمين وملاحقتهم ..

وكانت قافلة أبى سفيان أو العير ، أى الإبل التى تحمل البضائع والطعام هى الهدف الأول الذى يقصده المسلمون لإجبار المشركين على الكف عن إيذاء المسلمين .

و القافلة هدف مهم للغاية لأنها تحمل مؤونة قريش ولوازمها من
البيضائع والأمتعة ، حتى تأتي قافلة أخرى بعد شهر أو عام ، وكان لا بد أن
يترصدها المسلمون ..

ومن ثم ، بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - بُسَيْسًا ، واسمه الأصلي
بُسَيْس بن عمرو ، و يقال ابن بشر . وهو أنصاري من الخزرج ، ليتجسس على قافلة
أبى سفيان ويكون عيناً عليها ، ليرى كيف تسير ، وإلى أين تتجه ، وعدد
أفرادها... الخ .

و ذلك حتى يضع الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - الخطة الملائمة
التي تحقق له ما يريد من مهاجمة القافلة ، و ضرب قريش في مقتل .

و قد استعان الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالسرية والكتمان في
تخطيطه كما يقول أنس بن مالك رضى الله عنه - وهي أولية العمل العسكرى حتى
يومنا هذا . فالعمل على المكشوف في الحروب قد يهين للعدو فرصة الاستعداد
لتفادى الهجمات المباغتة ، وتفويت الفرصة على المهاجمين في تحقيق نجاح
أو انتصار . ولذا كان حديث النبى - صلى الله عليه وسلم - حول الاستعداد و
الخروج ، فقد استقبل بُسَيْسًا ومعه أنس وحمدا ، حيث سمعا حديثه ، وربما سمعه
بعض نسائه ..

ثم يعلن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه عن الخروج
إلى ميدان القتال . و يقول : " إن لنا طلبيةً ، فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا
" .. ولنا طلبية ، أى طلبا وهدفاً وغاية ، ولم يقل الرسول الكريم - صلى الله عليه
وسلم - ما هو المقصود بالطلبية كى لا يشيع الخار فيعرفه العدو و يتجنب المواجهة .
لقد أعلن أن لنا غاية معينة ، تقتضى ممن له ظهر ، أى راحلة ، سواء كانت
من الإبل أو الخيل ، فليركب معنا ، أى فليسر معنا ، و يمضى إلى حيث نقصد .

وكان هناك من لا يملك ظهراً حاضراً فى اللحظة ذاتها ، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم - كى يذهب إلى ضاحية المدينة ، وهنا يقصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أمره ، على من كان طهره حاضراً ، أى مركوبه موجوداً ، لأن الأمر عاجل ويقتضى الخروج والسير سريعاً إلى الهدف المطلوب .

وانطلق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، حتى سبقوا المشركين إلى بدر وانتظروهم هناك ، وحضر المشركون أو وصلوا إلى بدر . وهنا خاطب النبي - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه :

" قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض "

ومعنى قوموا إلى جنة ، أى استعدوا للحرب والقتال ضد العدو ، وخوضوا المعركة بروح الاستبسال الذى يؤدي إلى الشهادة ، ومصير الشهداء هو الجنة ، كما وعد رب العزة .

'وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ
وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ '

(آل عمران: ١٢٣-١٢٤)

وأعظم الإنفاق - بلا ريب - هو إنفاق النفس فى سبيل الله ، ودفاعاً عن دين الله ..

قوموا إلى الجنة - ٢

رأينا الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى حديث أنس يدعو أصحابه إلى القيام بواجبهم فى مقاتلة المشركين عند بدر، و عندئذ قال عمير بن الحُمَام الأنصارى :

" يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض ؟

قال : " نعم " .

فقال : يخِ يخِ .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : - " ما يحملك على قولك

بخِ يخِ ؟ "

قال : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلها .

قال : " فإنك من أهلها " .

فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى

أكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة .

قالت : فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم ، حتى قتل رضى الله عنه .

استعان النبى - صلى الله عليه وسلم - بالسرية والكتمان فى التخطيط

لواجهة المشركين عند بدر و أرسل بُسَيْساً يستطلع الموقف ، و يتجسس على الأعداء

وهو أى التجسس أمر مشروع حين يكون على الأعداء ، و كشف أسرارهم و مواقفهم

التي يمكن أن تضر بالمسلمين و تؤثر عليهم فى ميدان القتال ، أو على قوتهم بصفة

عامة .

ثم إنه - صلى الله عليه وسلم - طلب ممن له مركوب - أى راحلة - أن

يخرج فى الحال إلى حيث يقصد ، دون أن يصرح بقصدته حتى لا يعرف المشركون

مراده فيتجنبوا مواحيته .. وأوصى المسلمين حين سبق المشركين ، ووصل إلى بدر قبلهم : " قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض .."

إن القيام إلى هذه الجنة إغراء ، يجعل كل مسلم يتشوق إليها ، ويسعى بكل ما يملك ليصل إلى بابها ، والتعبير كناية عن الشهادة في سبيل الله ، التي يكون ثوابها جنة عرضها السموات والأرض كناية عن اتساعها وعظمتها ، مما يعنى أن الدفاع عن العقيدة والأوطان له قيمة غالبة في التشريع الإسلامى ، فقد فضل الله المجاهدين على القاعدين وجعل الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، إلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

وقد حرك النداء النبوى الكريم للمسلمين بالقيام إلى الجنة الواسعة العظيمة عواطف أصحابه ، وجعل القصة تتصاعد فى حركتها نحو الذروة ، حيث جرى حوار مهم ومؤثر ، بين عمير بن الحمام ، والرسول - صلى الله عليه وسلم - ودلالته تصب فى كيفية تطبيق النداء النبوى الكريم .

" قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض "

يبدأ الحوار بسؤال عمير : يا رسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض؟ وكان عميراً لم يصدق أو يستهول عظمة الصورة وضخامتها للجنة الموعودة. ومع ذلك ، فإن إجابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - تأتي هادئة مؤكدة و قاطعة : " نعم "

و هنا يقول عمير : بخ بخ . أى ما أحسن هذا الأمر وما أعظمه .
ويسأله الرسول - صلى الله عليه وسلم - عما يحمله على قول بخ بخ ، وهو يعلم أن المقابل هو تقديم الحياة فى ميدان القتال فداءً للعقيدة والدعوة والوطن .

فيجيب عمير : لا والله يا رسول الله ، إلا رجاء أن أكون من أهلها . أى ما قلت هذه الكلمة الكررة بخ بخ ؛ إلا رجاء أن أكون من أهل الجنة التى عرضها السموات والأرض .

وهنا تكون البشارة النبوية :

" فإنك من أهلها "

أى إن عميراً من أهل الجنة الواسعة العريضة ؛ بفضل الله .

وتتبدى قوة الإيمان لدى عمير ، حين يخرج تمرات من كيس النشاب أو السهام الذى يسمى قرن النشاب ، وراح عمير يأكل هذه التمرات ويقول : لئن أنا حييت حتى أنتهى من هذه التمرات فمعنى ذلك أن هذه الحياة ستكون طويلة ، وهو كناية عن شدة شوقه إلى الجنة الواسعة ورغبته أن يذهب إليها سريعاً قبل أن يتم أكل تمراته . وقد تحققت هذه الرغبة بالفعل حيث رمى عمير بما كان معه من التمرات ، والاندفاع إلى ميدان القتال ، يقاتل المشركين بكل ما يملك من قوة حتى ينال الشهادة ، وقد نالها بالفعل ، وتحققت بشارة النبى الكريم - صلى الله عليه وسلم - بدخول الجنة الواسعة العظيمة التى عرضها السموات والأرض .

إن غزوة بدر فى جوانبها المختلفة تقدم درساً عميقاً فى مجال الإيمان والعقيدة والتخطيط العسكرى ، و مواجهة العدو ، وتحقيق النصر والشهادة .

وهنا جانب من جوانبها ترويه القصة النبوية ، حيث تصوّر السرية فى جمع المعلومات ، ووضع الخطط وبناء الروح المعنوية التى تواجه العدو بقلب حديدى لا يهاب الموت .

رجل من بنى حنيفة - ١

عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال : بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيلاً قبل نجد ، فجاءت برجل من بنى حنيفة ، يقال له ، ثمامة بن أثال ، سيد أهل اليمامة فربطوه بسارية من سواري المسجد ، فخرج إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم فقال له : " ماذا عندك يا ثمامة ؟ "

قال : عندي يا محمد خير. إن تقتل تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

حتى إذا كان الغد قال : " ماذا عندك يا ثمامة ؟ "

قال : ما قلت لك ؛ إن تنعم تنعم على شاكرك، وإن تقتل تقتل ذا دم ، وإن كنت تريد المال ؛ فسل تعط منه ما شئت .

فتركه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى كان بعد الغد ، فقال :
" ماذا عندك يا ثمامة ؟ "

فقال : عندي ما قلت لك . إن تنعم تنعم على شاكرك ، وإن تقتل تقتل ذا دم
وإن كنت تريد المال ؛ فسل تعط منه ما شئت ..

" حديث صحيح أخرجه البخاري وآخرون "

.....
يضع الإسلام أسساً إنسانية للتعامل مع الأعداء والخصوم ، تظل منارة هادية لكل من يريد الهداية والسلوك الإنساني القويم ، وفي الوقت ذاته ترد على من يظلمون الإسلام ويتهمونهم بغير حقيقية ، وتلصق به ما ليس فيه .

إن العلاقة مع الآخر ، ولو كان عدواً لدوداً تأخذ صورة غير مسبوقه فى التاريخ الإنسانى ، حين نقيسها بمقاييس الإسلام التى تقدم السلام والمودة والخير

على الحرب والكراهية والشر .. فما انتشر الإسلام بالسيف كما يردد المفترون
الظالمون ، ولا ساد بالعنف والاضطهاد كما يرجف المفترون الطاغون .

و هذه القصة النبوية الشريفة تقدم لنا حدثاً واقعياً جرى على أرض
نجد فى قلب الجزيرة العربية ، حيث قبيلة من أشهر قبائلها وهى قبيلة بنى
حنيفة.. فقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم - كما يروى أبى هريرة رضى الله
عنه - مجموعة من الفرسان إلى نجد أو أرسل خيلاً قبل نجد ، أى نحو نجد كما
يقول أبو هريرة .

وكان إرسال هذه المجموعة لتأمين المسلمين وإتقاء شرّ من يهددهم بالإغارة
أو شن الحرب .

و استطاع الفرسان أن ينجحوا فى مهمتهم ، ويأسروا " ثمامة بن
أثال " سيد أهل اليمامة ، وهو من بنى حنيفة .. وكان عليه أن يخضع لما يخضع له
الأسرى وفق مفهوم هذا العصر وتقاليد وقيمه فى التعامل مع الأسرى .

بالطبع لم يكن هناك آنئذ أماكن احتجاز للأسرى أو سجون
أو معتقلات يوضع فيها أسرى العدو ، ولكن التحفظ على " ثمامة " اقتضى ربطة
بسارية ، أى عمود من سوارى المسجد حتى لا يهرب ، ثم يرى المسلمون فيه ما يراه
رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

و كما نرى فالقصة تجرى فى تسلسل قصصى يشوقنا إلى معرفة بقية
الأحداث التى تتصاعد شيئاً فشيئاً .. فالشخصية المهمة فى القصة هى شخصية
زعيم بنى حنيفة و سيد أهل اليمامة ، وهو ليس رجلاً عادياً أو بسيطاً ، وقد جرى به
أسيراً إلى المدينة المنورة وتم ربطه فى سارية المسجد حتى يُنظر فى أمره ، فماذا
جرى له ؟

لقد خرج الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى ثمامة ، و سأله :

"ماذا عندك يا ثمامة ؟"

والسؤال هنا يعنى أكثر من معنى أو أكثر من مستوى دلالى ، ولكنه يريد بصفة عامة أن يستخرج ما فى باطن الرجل من رأى ورغبة .

كأنه - صلى الله عليه وسلم - يسأله : أى شىء عندك يا ثمامة ؟
أو ماذا تظن أن أفعل بك يا ثمامة ؟

وبالتأكيد ، فإن ثمامة ، أو من فى مثل موقفه الصعب ؛ لابد أن يرجو الخير عند النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى اشتهر بالعفو عن ظلم ، والرحمة بالضعيف والإحسان إلى المسىء..

و هذه صفات يشهد له بها أعداؤه قبل أحبابه ، حيث يروونه إنساناً فى خلقه إنساناً فى تصرفاته ، إنساناً فى مشاعره وعواطفه ، على عكس ما يصوره به المتعصبون الأشرار الذى يعيشون فساداً فيقتلون الضعفاء ويحتلون أراضيتهم ويحرمونهم من عقيدتهم وشريعتهم وينهبون بلادهم وخيراتهم ..

محمد - صلى الله عليه وسلم - يسأل ثمامة عما يظن أن يفعله به ؟
ويجيب ثمامة وفق فطرته ، والمفاهيم التى استقرت و سادت فى زمانه وعصره ،
فيقول : "عندى يا محمد خير . إن تقتل تقتلنا دم ، إن تنعم تنعم على شاكر ،
وإن كنت تريد المال ؛ فسئل تعط منه ما شئت "

إن الرجل يطرح الخيارات الثلاثة : القتل ، المنّ ، الفداء ، ولكل خيار من هذه الخيارات وجهه و منطقته وحيثياته وفقاً لمفهوم ثمامة ، و مفهوم زمانه ، وهو ما استمع إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - أول مرة ، ولم يعلق عليه ، ثم سمعه ثانية وثالثة .

رجل من بنى حنيفة - ٢

فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه كشف لنا قصة أسر شامة بن أثال سيد أهل اليمامة ، من بنى حنيفة ، ورأينا كيف كان يردّ على النبى - صلى الله عليه وسلم . ويكرر إجابته : " إن تقتل تقتل ذا دم . إن تنعم تنعم على شاكرك . وإن كنت تريد المال ؛ فسلب تعطى منه ما شئت " .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " انطلقوا بثمامة " فانطلقوا به إلى نخل قريب من المسجد . فاغتسل ثم دخل المسجد . فقال : أشهد أن لا إله إلا الله و أشهد أن محمداً رسول الله . يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلى من وجهك فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى .

❖ ووالله ما كان من دين أبغض إلى من دينك . فأصبح دينك أحب الأديان إلى

❖ ووالله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك . فأصبح بلدك أحب البلاد إلى .

وإن خيلك أخذتني . وأريد العمرة . فماذا ترى ؟

فبشره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأمره أن يعتمر . فلما قدم مكة قال له قائل : صبات .

فقال : لا .

ولكن أسلمت مع محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا والله لا يأتكم من اليمامة حبة حنطة . حتى يآذن فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم ..

من يدرس تاريخ الإسلام . وخاصة فى مرحلة البعثة . ويرى مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم - مع المشركين والكافرين والمنانقين . يتأكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام هو الذى يفرض نفسه على القلوب والعقول . وأن ما يفتربه بعض الظالمين المتعصبين عن نشر الإسلام بالسيف . هو فرية لا أساس لها من الصحة تاريخياً أو واقعياً .

إن الحروب التي خاضها الإسلام كانت دفاعاً عن وجوده ، وتأميناً لأتباعه و ترسيخاً للأمن فى ربوعه ، ولم تكن لإرغام الناس على الدخول فى دائرته ، والبحث عن الغنائم ، وإيذاء المخالفين كما يزعم المفترون المتعصبون ..

وهاجى نرى محمداً - صلى الله عليه وسلم - يترك لثامه بن أثال سيد أهل اليمامة وزعيم بنى حنيفة ، أن يختار ويقرر ، ليس من أول مرة ، ولكن بعد مرات ثلاث يقول فى كل منها :

" إن تنعم تنعم على شاكر . و إن تقتل تقتل ذا دم و إن كنت تريد المال ؛ فسئل تعط منه ما شئت "

إن الإنعام المقصود فى كلام ثامة ، هو المَن ، أى الإفراج عنه بعد الأسر ، وتركه يعود إلى أهله وقومه ...

وهذا الإنعام يستوجب الشكر... والشكر سلوك يحببه العرب و أقره الإسلام .

فكل من يحسن إليك يستوجب الشكر . " من أسدى إليكم معروفاً فاشكروه " ..

بل إن الشكر فى الإسلام يأخذ أبعاداً أعمق تصل إلى العبادة ، حيث نحمد الله ونشكره فى صلاتنا و قيامنا على ما يسديه إليه من نعم لا تحصى ، ومعروف يمتد بامتداد الزمان والمكان .

أما القتل الذى أشار إليه ثامة ، فهو القصاص من القاتل ، أو الخار للقتيل وطالما أن الأسير مطلوب دمه قصاصاً فلا لوم على النجى - صلى الله عليه وسلم - إذا قتله قصاصاً ، واشتفاء منه ..

وإنما كان المَن والقتل يمثلان الخيار الأول والخيار الثانى ، فإن الفداء هو الخيار الثالث . ومعناه ، أن يقوم أهل الأسير بدفع فدية من المال يقبل بها المسلمون كى يطلقوا سراحه .

و قد آثر الرسول - صلى الله عليه وسلم - الخيار الأول ، وهو الإنعام ، أى المَن على ثامة وإطلاق سراحه ، وهو ما جعله من خلال معاشيته للمسلمين ، يؤثر الإسلام ويعلمه .

لقد قال الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه : " انطلقوا
بثمامة " ودهبوا به إلى نخل قريب من المسجد ، حيث اغتسل و دخل المسجد ، ونعلق
بالشهادتين : أشهد أن لا إله إلا الله . و أشهد أن محمداً رسول الله .

هكذا دخل صحابي جديد إلى دائرة الإسلام السمحاء ، بعد أن كان معادياً
شديد العداء للإسلام والمسلمين ، و أعلن عن مشاعره صراحة قائلاً يا محمد والله ما كان
على الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصدح وجهك أحب الوجوه إليّ .

❖ ووالله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك ، فأصبح دينك أحب الأديان إليّ

❖ ووالله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلاد إليّ..

وهنا نراه يحب محمداً بعد بغض ، و يحب دينه بعد بغض ، و يحب بلده بعد
بغض مسجلاً مشاعر إنسانية حقيقية ترتبط بالصراع بين الحق والباطل ، وتؤكد على أن
الرجل الذي يفىء إلى الحق هو رجل مكتمل المشاعر والعواطف لا يكتفها ولا يخفيها مهما
كانت حادة أو عنيفة ..

و تؤكد في الوقت ذاته على حب الإنسان للإنسان الذي هو نبى ، وحب
الإنسان للدين الذي هو العقيدة ، وحب الإنسان للبلد الذي هو الوطن .. وهو حب مشروع
لمن يملك المشاعر الإنسانية الحقيقية .

لقد تمنى ثمامة أن يعتمر . فبشره الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمره أن
يعتمر .

وفي مكة قالوا له : صبات ، أى رجعت عن دين أبائك وهو الوثنية .

و لكنه أفحمهم قائلاً : لقد أسلمت مع محمد رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - وأقسم ألا يأتيهم من اليمامة حبة حنطة حتى يآذن فيها رسول الله - صلى الله
عليه وسلم . رضى الله عن ثمامة والصحابية أجمعين .

كتب للمؤلف

الأستاذ الدكتور حلمي محمد القاعود

أولاً : كتب صادرة عن دار النشر الدولي بالرياض

- ١- النقد الأدبي الحديث: بداياته وتطوراتاه.
- ٢- تيسير علم المعاني
- ٢- الأدب الإسلامي : الفكرة والتطبيق .
- ٤- محمد- صلى الله عليه وسلم في الشعر العربي الحديث (طبعة ثانية متقحة ومزينة ومجلدة وفاخرة) .
- ٥- المدخل إلى البلاغة القرآنية .
- ٦- القصائد الإسلامية اللوال في العصر الحديث: دراسة ونصوص (طبعة رابعة) .
- ٧- تطوّر النثر العربي في العصر الحديث .
- ٨- مدرسة البيان في النثر الحديث .
- ٩- تطوّر الشعر العربي في العصر الحديث .

ثانياً : كتب صادرة عن دار العلم والإيمان (دمشق - كفر الشيخ) :

- ١- الإخوان والنظام : برنامج الحزب المستحيل .
- ٢- وجود عربية وإسلامية .
- ٣- الورد والهالوك : شعراء السبعينيات في مصر (طبعة ثالثة) .
- ٤- الواقعية الإسلامية في روايات نجيب الكيلاني (طبعة ثالثة) .
- ٥- الرواية التاريخية في أدبنا الحديث (طبعة ثالثة) .
- ٦- الرواية الإسلامية المعاصرة (طبعة ثانية) .

- ٧ - في رياض النبوة (٣ أجزاء)
٨ - شعراء وقضايا : قراءة في الشعر العربي الحديث .

ثالثا : إسلاميات :

- ١ - مسلمون لا نخجل (٤ طبعات) .
٢ - حراس العقيدة (٣ طبعات) .
٣ - الحرب الصليبية العاشرة .
٤ - العودة إلى الينابيع .
٥ - الصلح الأسود .. والطريق إلى القدس .
٦ - ثورة المساجد .. حجارة من سجليل .
٧ - هتلر الشرق .
٨ - جاهلية صدام وزلزال الخليج .
٧ - أهل الفن وتجارة الغرائز (طبعتان) .
٨ - النظام العسكري في الجزائر .
٩ - حفنة سطور .. شهادة إسلامية .
١٠ - لأقصى في مواجهة أفيال أبرهة .
١١ - الإسلام في مواجهة الاستئصال .
١٢ - تحرير الإسلام .
١٣ - دفاعا عن الإسلام والحرية .
١٤ - التنوير .. رؤية إسلامية .
١٥ - معركة الحجاب والصراع الحضاري .
١٦ - العصا الغليظة .
١٧ - واسلمي يا مصر .

رابعاً : كتب أدبية ونقدية :

١. الغروب المستحيل (سيرة كاتب) .
٢. رائحة الحبيب (مجموعة قصصية عن حرب رمضان) .
٣. الحب يأتي مصادفة (رواية عن حرب رمضان) .
٤. موسم البحث عن هوية : دراسات في الرواية والقصة .
٥. حوار مع الرواية المعاصرة في مصر وسوريا
٦. لويس عوض الأسطورة والحقيقة . حوار مع الرواية في مصر وسورية .
٧. الوعي والغيبوبة : دراسات في الرواية المعاصرة .
٨. إنسانية الأدب الإسلامي .
٩. حصيرة الريف الواسعة .
١٠. أضواء على الرواية الإسلامية المعاصرة .

خامساً : إعلام :

١- الصحافة المهاجرة : رؤية إسلامية .

سادساً : كتب للأطفال :

واحد من سبعة .

سابعاً : كتب محققة :

١- فتاوى كبار الكتاب والأدباء في مستقبل اللغة العربية ونهضة الشرق العربي

وموقفه إزاء المدنية الغربية .

٢- أحسن ما كتبت .

ثامناً - كتب معدة للنشر :

١- التمرد الطائفي في مصر : أبعاده وتجلياته .

- ٢ - الحداثة العربية - المصطلح والمفهوم (طبعة ثانية) .
- ٣- الإبادة والمقاومة : الشعب الفلسطيني لا يموت .
- ٤ - الحكاية كلها معاصرة (دراسات في الرواية) .
- ٥ - خبز السلطة .. خبز الحرية (الحقل الثقافي في مصر المعاصرة) .
- ٦ - الحلم والدهشة (قراءة أدبية) .
- ٧ - العمامة والثقافة : دفاع الإسلام وهجوم العلمانية .
- ٨ - اللحم الإسلامي المستباح .
- ٩ - حضرت التبعية .. وغابت الهوية .
- ١٠ - صالون الشعر والأدب (اعلام وقضايا) .
- ١١ - انفكسار الدم على السيف .
- ١٢ - سورة الأنفال .
- ١٣ - نداء الفطرة .
- ١٤ - عباد الرحمن وعباد السلطان .
- ١٥ - اخلع إسلامك .. تعيش أمنا ؟!
- ١٦ - ثقافة تزغيط البط !
- ١٧ - محرقة غزة .. الشعب الفلسطيني يقاوم !
- ١٨ - القيم الإسلامية في رسائل النور .
- ١٩ - كهنة آمون !
- ٢٠ - المدافعة والمداولة - قراءة في الأفق الثقافي العام .

المحتويات

رقم الصفحة	الاسم	رقم
٢ الطمع في رحمة الله-١	.١
٦ الطمع في رحمة الله-٢	.٢
٩ القول والفعل	.٣
١٢ دعاء السفر عند الحج	.٤
١٥ الحج المبرور	.٥
١٨ الحج مرة واحدة	.٦
٢١ من حجة الوداع	.٧
٢٤ التلبية وصفتها	.٨
٣٠ دعاء العودة من الحج والجهاد والسفر	.٩
٣٢ اتقاء الشبهات	.١٠
٣٥ البر والأثم	.١١
٣٨ أهل الصفة-١	.١٢
٤١ أهل الصفة-٢	.١٣
٤٤ دفاع الملائكة-١	.١٤
٤٧ دفاع الملائكة-٢	.١٥
٥٠ قصة غزوة بدر والأسرى-١	.١٦

رقم الصفحة	الاسم	٢٥
٥٢ قصة غزوة بدر والأسرى - ٢	١٧
٥٦ قصة غزوة بدر والأسرى - ٣	١٨
٥٩ قصة إسلام صحابي جليل - ١	١٩
٦٢ قصة إسلام صحابي جليل - ٢	٢٠
٦٥ ربه مباركة	٢١
٦٨ إيمان الفطرة - ١	٢٢-
٧١ إيمان الفطرة - ٢	٢٣
٧٤ أول من صلى إلى الكعبة - ١	٢٤
٧٨ أول من صلى إلى الكعبة - ٢	٢٥
٨١ الاسلام عند الموت - ١	٢٦
٨٤ الاسلام عند الموت - ٢	٢٧
٨٧ الصحابة والحمى - ١	٢٨
٩٠ الصحابة والحمى - ٢	٢٩
٩٣ ألف دينار في البحر	٣٠
٩٩ جبريل عليه السلام يعلم الصحابة	٣١
١٠٥ القرد والخمر	٣٢
١١٠ الصبر على البلاد	٣٣
١١٥ الابتلاء والرحمة	٣٤

رقم الصفحة	الاسم	٢٥
١٢٠	سبق عكاشة٣٥
١١٦	الصدقة في غير موضعها٣٦
١٢٩	النعيم والجحيم٣٧
١٢٣	رحمة الله٣٨
١٢٧	الحب في الله٣٩
١٤٠	قوموا إلى الجنة - ١٤٠
١٤٤	قوموا إلى الجنة - ٢٤١
١٤٧	رجل من بني حنيفة - ١٤٢
١٥٠	رجل من بني حنيفة - ٢٤٣
١٥٣	كتب للمؤلف٤٤

